القصيدة المنفرجة للإمام ابن النحوي
ومعارضة الإمام الغزالي لها
دراسة تحليلية نقدية موازنة

بحث بقلم

د/ سوسن محمد عبد الجواد بلتاجي

مدرس الأدب والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله المفرج للكرب عقب الشدة لتخليص عباده من غياهب الظلم المعدة، والصلاة والسلام على سيد الأنام وعلى آله وصحبه الكرام، وبعد

فقد لا يعرف البعض أن المنفرجة منفرجتان، وقد يخلط البعض بينهما، فالأولى صاحبها مغمور والثانية صاحبها مشهور، فالمنفرجة الأولى " النص المعارَض "للإمام العلامة أبي الفضل يوسف بن محمد بن يوسف التوزري المعروف بابن النحوي، أما المنفرجة الثانية فهي للإمام العلامة أبي حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي ،على حين ينسب البعض المنفرجة الأولى للإمام الغزالي ، ولعل هذا الخلط غير متعمد فهو من أثر المعاصرة الزمنية بين الرجلين ، على الرغم من تباعد القطر فقد كان ابن النحوي من أعلام الشمال الإفريقي ، على حين كان الغزالي في بغداد.

ويحاول هذا البحث أن يقدم دراسة تحليلية لمعارضة شعرية عارض فيها شاعر مشرقي لأحد شعراء المغرب العربي، وقد جاء ذلك على عكس ما اشتهر من معارضة شعراء الأندلس لكثير من شعراء المشارقة الأمر الذي كان " يعكس مدى اطلاع شعراء الأندلس على التراث الشعري المشرقي، واستيعابه بعمق حتى نعت شعراء الأندلس بألقاب شعراء المشرق الكبار فابن دراج هو متنبي الأندلس، وابن زيدون هو بحتري الأندلس....."[1]

ولعل المعاصرة الزمنية بين الشاعرين موضوع الدرس دليل واضح على إعجاب الشاعر الثاني بالشاعر الأول، هذا الإعجاب الذي اتضح لي أنه لم يقف عند حدود القصيدة الشعرية، بل تجاوز حدود الجزئية فتشابه الشاعران في أمور كثيرة حتى يقال إن ابن النحوي في المغرب كالغزالي في العراق علماً وعملا.

ومن المؤكد أن المعارضة الشعرية تمثل نمطاً واضحاً من أنماط المداخلة بين النصوص، وهي مداخلة اختيارية لها ما يبررها وهو إعجاب

(١) المعارضات في الشعر الأندلسي القصيدة العباسية نموذجاً د. علي الغريب محمد الشناوي، ط. ٢٠٠٣، صـ٣

الشاعر المعارِض للنص المعارَض، وهذا الأمر لا يعيب الشاعر الثاني ؛لأن نصه لا يخلو من محاولة الإضافة، والابتكار عن النموذج محل الإعجاب، فتنطق الأنا مثبتة وجودها؛ لتبرهن على القيمة الفنية للمعارضة.

وقد اعتمد التحليل الفني للقصيدتين على رصد ملامح التجانس، و أوجه التناقض بين النصين، مع بيان عناصر التشكيل الجمالي الجامعة بين النصين والفارقة بينهما وذلك لأن "النص المعارِض ليس إعادة إبداع، أو كتابة على كتابة مماثلة، فلكل نص خصائصه القارة فيه، وكلا النصين بينهما مفارقة لا تسمح أن يحل أحدهما محل الآخر، فهما ليس مجرد نصين متماثلين أو متبادلين، فلكل خصوصيته وسماته..... "[1].

وقد انتظمت هذه الدراسة في ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : إطلالة على الشاعرين محل الدراسة، ومناسبة النص.

وفيه تناولت حياة الشاعرين من خلال الظروف الاجتماعية والنفسية، وطبيعة علاقة كل منهما على اختلاف دوائرها في إطار المرحلة التي صاغا فيها التجربة، ومن ثم تتكشف الأبعاد الشعورية التي تكمن وراء التجربة.

المبحث الثاني : معارضة الغزالي لابن النحوي، ورصد مظاهر التشكيل الجمالي المشتركة بينهما.

وفيه حاولت استظهار الملامح المشتركة بين الشاعرين وهو ما لا يتأتى إلا بالدرس التحليلي.

المبحث الثالث: الملامح الفارقة بين النصين :

وفيه حاولت توضيح السمات الفارقة بين النصين، والتي تأتي كنتيجة طبيعية للفروق الفردية بين الشعراء، وكذلك التفاوت في طبيعة التجربة.

(١) القول الشعري. رجاء عيد / منشأة المعارف الإسكندرية، ١٩٩٥/صـ٢٢٤

المبحث الأول

ـ إطـلالة على الشاعرين
ـ مناسبة النصيـن

أولاً: التعريف بابن النحوي.

هو الحبر الفهامة العارف بالله الرباني أبو الفضل يوسف بن محمد التو زري، عرف بابن النحوي التوزري نسبة إلى توزر مسقط رأسه في الجنوب التونسي، ولد عام٤٣٣ هـ ١٠٤٢ م،وكانت توزر في عصره بها أعلام كثيرة مثل عبدالله بن محمد الشقراطسي الذي كان إماماً في الحديث، والعربية،والفقه وكان أديبا شاعراً وهو من شيوخ ابن النحوي.

رحل أبو الفضل إلى ولاية صفاقس بالجنوب الشرقي التونسي للأخذ عن فقهاء عصره ومنهم الشيخ أبو الحسن اللخمي فقرأ عليه كتاب " التبصرة "وروى عنه صحيح البخاري، كما أخذ عن الإمام المازري أصول الفقه وعلم الكلام.

وفي هذا الجو العلمي تنفس ابن النحوي فكان مثل شيوخه متمكنا من أصول الدين والفقه، كذلك كان شاعراً وأديبا لغويا.

وإذا كانت تونس قبيل هذا العصر نبتت فيها طلائع متأثرة بتعاليم شيخ أهل السنة أبي الحسن الأشعري في علم الكلام مع العناية بأصول الفقه،فإن الطابع الغالب لدى فقهاء المغربيين الأوسط والأقصى في عهد المرابطين هو النفور من علم الكلام وأصول الفقه.(١)

---

(١) تعتبر قبائلُ صنهاجة أقوى قبائل البربر وأشدها وأمنعها، واشتهرت بقُوَّة شكيمتها، وكثرة رجالها الذين ملؤا الشَّمَال الإفريقي وسكنوا جباله، وسهوله وخصوصًا من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى، واعتبرَ بعضُ المؤرخين قبائل صنهاجة مثلت شعبًا انضوتْ تحت لوائه أكثر من سبعين قبيلة بربرية وهى التي تكوَّنت منها دولة المرابطين السُّنيَّة. اشتهرتْ القبائل الصنهاجية في التَّارِيخ باسم المُلَثَّمين، وأصبح اللثام شعارًا عُرفوا به إلى أن تسمَّوا بالمرابطين، سكن المُلَثَّمون الصحراء الكبرى الممتدة من غدامس شرقًا إلى المحيط الأطلسى غربًا، ومِن جبال درن شمالاً إلى أواسط الصحراء الكبرى جنوبًا.ولم تكن هذه الأماكن والمواطن تجرى بها أنهار دائمة، وكانت قليلة الأمطار وأحيانًا تُحبَسُ عنها الأمطار لسنوات عديدة؛ فيتعرض سكانها للمجاعة فيرتحلون لطلب الماء والكلأ، فتفرقوا حول الواحات الصغيرة في تلك الصحارى الممتدة الأطراف، وكوَّنوا قرى بدائية تتماشى مع = =ظروف حياتهم

ولقد لقي ابن النحوي المتاعب والمقاومة من الفقهاء والرؤساء زمن استقراره بالمغرب الأقصى عندما قرأ علم الكلام وأصول الفقه، وبعد أن استكمل رحلته العلمية رجع إلى بلده توزر، ثم بارحها في ظروف غامضة، وذكر البعض أن ذلك يرجع إلى خلاف بينه وبين واليها واستطالة الوالي عليه بالظلم، ومصادرة أملاكه والاعتداء عليه، فظل أبو الفضل متجولا بين مدن الجزائر والمغرب الأقصى مدرساً للنحو والفقه، والأصول، وعلم الكلام سالكاً طريق الزهد والتقشف.

الرعوية، وقد حكم المرابطون المغرب والأندلس العدوتين معا (٤٨٤ – ٥٣٩)، فلما كانت دولة المرابطين، وأساسها ديني، وخلفاؤها الثلاثة ذوو زهد وتبتل وعبادة، قربوا إليهم الفقهاء، ليمنحوا الدولة الصبغة التي يؤثرونها، فارتفع شأن هؤلاء أكثر من ذي قبل، ونال الفقهاء من تلك الأسباب ثروات ضخمة، أثارت حفائظ الشعب، ولذلك أعلنوا ذمهم وتهكموا بهم وبأسيادهم المرابطين، وتحينوا الفرص ليشفوا منهم الغليل،فلم يلبث الأندلسيون أن ضاقوا ذرعا بحكم المرابطين لتسليطهم الفقهاء على الناس، ولتضييقهم شيئا مما تعوده الأندلسيون من حرية شبيهة بالفوضى. كما لم يلبث أمراء المرابطين أن تشبهوا بالأندلسيين في الأخذ بأسباب التحضر، وتقريب طبقة المثقفين، والعمل .

على تزيين مجالسهم بما يمحو بساطة الصحراء، وجنح بعضهم إلى الاستبداد. وإذا كان الشعر ذا دلالة اجتماعية فإن ظهور القصائد في مدح النساء قد يدل على ما كان لهن من سلطة واسعة في الحياة الإدارية، وينسب المراكشي إلى تسلط النساء في شئون الدولة، قسطاً وافراً من المسئولية في فساد حكم المرابطين واستولى النساء على الأموال وأسندت إليهن الأمور،وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة، مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر ومخمور وبذلك تضعضعت القاعدة التي قامت عليها الدولة، وهي البعث الديني والجهاد، وانه لم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم الفروع، فروع مذهب مالك وأنه نفقت في ذلك الزمان كتب المذهب، وكفر العلماء كل من عمل في علم الكلام وأحرقت كتب الغزالي ينظر: دولة المرابطين فى المغرب والأندلس، د. سعدون عباس ص ١٢–١٣، تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، د. حمدي عبد المنعم، ص٢٧، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين، د.إحسان عباس، ج ١، ص ٣٨)

كان ابن النحوي من العلماء العاملين، مجاب الدعوة حاضراً مع الله في غالب أموره، له اعتقاد خاص بإحياء الغزالي ؛ ولذا قال عنه أحد رؤساء البلاد يريد هذا الرجل أن يدخل علينا علوماً لا نتعارفها وأمر بطرده فدعا عليه ابن النحوي قائلاً " أمت العلم أماتك الله هنا، فجلس ثاني اليوم لعقد نكاح فقتلته قبيلة صنهاجة، وجرى له مثله بفاس مع قاضيها ابن دبوس فدعا عليه فأصابته أكلة في رأسه فوصلت لحلقه فمات وكان قد قطع ليلته بسجدة قائلاً فيها اللهم عليك بابن دبوس فأصبح ميتاً. (١)

مناسبة القصيدة:

نظم ابن النحوي المنفرجة حين شكا إليه بعض أهله الضيق ؛ لغيابه فراراً من ظالم بلده، وقد طُلب منه أن يرفع الأمر إلى هذا الظالم حتى يأذن له بالرجوع، فقال سأفعل ولكنه بدلاً من أن يرفع شكايته إلى ظالمه رفعها إلى الله تعالى متضرعاً إليه في تهجده وقد أنشد قائلاً :

لبست ثوب الرجا والناس قد ... وقمت أشكو إلى مولاي ما أجدُ
وقلت يا سيدي يا منتهى أملي ... يا من عليه بكشف الضر أعتمدُ
أشكو إليك أموراً أنت تعلمها ... ما لي على حملها صبرٌ ولا جلدُ
وقد مددتُ يدي للضر مشتكياً ... إليك يا خير من مُدت إليه يدُ

ونظم المنفرجة وأعاد أهله السؤال فقال : بلغ الأمر أهله، وبعد قليل ورد كتاب من توزر بالتلطف مع الشيخ وإجابة رغبته في الرجوع، فقال للسائل قضيت الحاجة.

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى / أبو العباس الناصري /ج٢/ دار الكتاب،الدار البيضاء / ١٤١٨،١٩٩٧ /ت، جعفر الناصري، محمد الناصري / ص ٧٤،٧٣.

ويقال إنه نظمها حين أخذ بعض المتغلبين ماله فرأى ذلك الرجل في نومه تلك الليلة فارساً يحمل عليه وبيده حربة من نار وقال له:رد إليه ماله وإلا قتلتك فاستيقظ الرجل ورد عليه ماله[١].

وفاة ابن النحوي :

توفي ٥١٣ هـ، ١١١٩م في قلعة حماد، وما تزال هناك قرية صغيرة تحمل اسم الشيخ.

وعلى الرغم من اختلاف الروايات في سبب نظم القصيدة

إلا أن المتفق عليه أنها كانت سبباً في تفريج الكرب وإزالة الهم وقد ذكر تاج الدين السبكي في طبقاته أن كثيراً من الناس يعتقد أن هذه القصيدة مشتملة على الاسم الأعظم وما دعا به أحد إلا استجيب له، فهي مجربة لكشف الكروب.

وقد حظيت المنفرجة بعناية كثير من أهل الأدب خاصة أهل المغرب فلازالوا يتواصون بحفظها وإنشادها في مجالسهم، وقد أخذت العناية بهذه القصيدة صوراً مختلفة ما بين شرح وتخميس ومعارضة، فقد أحصي لها ما يزيد عن عشرة شروح، وتسع تخميسات،منها تخميس المنفرجة لعلاء الدين الفقاعي ثم الدمشقي الأديب الحنفي. [٢]

ومن شروح المنفرجة ما جاء موسوماً بـ" اللوامع اللهجة بأسرار المنفرجة " للشيخ محمد بن محمد الدلجي. ومنها " الأنوار البهجة في ظهور كنوز المنفرجة " للشيخ عبد الرحمن بن حسن المقابري الشافعي،

ومنها " الأضواء البهجة في إبراز دقائق المنفرجة " للشيخ يحيى بن زكريا الأنصاري وهو الشرح الذي اعتمدت عليه في فهم أسرار القصيدة.

---

(١) طبقات الشافغية الكبرى /تاج الدين السبكي /ج٨/ هجر للطباعة والنشر١٤١٣هـ /ط٢ / ت.محمود محمد الطناجي، عبد الفتاح محمد الحلو / صـ ٦٠

(٢) هدية العارفين / إسماعيل باشا البغدادي /ج٥/دار الكتب العلمية بيروت، ١٤١٣ ١٩٩٢ /ص ٥١٨.

كما شرحت بالتركية باسم " الحكم المندرجة في شرح المنفرجة " للشيخ إسماعيل بن أحمد الأنقروي. (١)

ثانيا : التعريف بالغزالي(٢).

هو الإمام أبو حامد الغزالي الطوسي النيسابوري الفقيه الصوفي الشافعي الملقب بحجة الإسلام، وهو مجدد القرن الخامس الهجري وهو من أهم وأشهر أعلام عصره، ولد بقرية " غزالة" القريبة من طوس من إقليم خراسان عام ٤٥٠هـ، ١٠٥٨م وإليها نسب الغزالي، نشأ في بيت فقير وكان والده رجلاً زاهداً متصوفاً لا يملك غير حرفته.

ابتدأ الإمام طلبه للعلم في صباه فدرس الفقه وأصوله، وعلم الكلام، والمنطق، وفي هذه الفترة ألف الغزالي كتابه " المنخول" وعرضه على شيخه الجويني إمام الحرمين فعلق عليه قائلاً : " دفنتني وأنا حي ! هلا صبرت حتى أموت ؟!(٣)

قدم نيسابور مختلفاً إلى درس إمام الحرمين وجد واجتهد في طلب العلم حتى تخرج في مدة قريبة وصار أنظر أهل زمانه وأوحد أقرانه، وكان الطلبة يستفيدون منه ويدرس لهم ويرشدهم، وقد وقعت له اتفاقات حسنة من الاحتكاك بالأئمة، وملاقاة الخصوم، ومناظرة الفحول فظهر اسمه في الآفاق، وصار إمام خرسان ثم العراق وقد ألف الغزالي خلال مدة حياته الكثير من الكتب في مختلف صنوف العلم حتى قيل إن تصانيفه لو وُزعت

---

(١) كشف الظنون/مصطفى القسطنطيني الرومي/ج٢/ دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٣/ ١٩٩٢/ص١٣٣٦.

(٢) الغَزَّالي : بفتح الغين والزاي المشددة نسبة إلى الغزَّال على عادة أهل جرجان، وقد روي عنه أنه أنكر هذا وقال إنما أنا الغزالي بالتخفيف نسبة إلى غزالة قرية من قرى طوس.ينظر:اللباب في تهذيب الأنساب /أبو الحسن الشيباني ج٢/دار صادر بيروت /١٤١٠، ١٩٨٠،ص٢٧٩.

(٣) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم / عبد الرحمن الجوزي /دار صادر، بيروت ١٣٥٨/ط١/ ١٢٣.

على أيام عمره لأصاب كل يوم كتاباً حيث بلغت ٤٥٧ مصنفاً ما بين كتاب ورسالة، ومخطوط، ومفقود. (١)

انتصار ابن النحوي للإمام الغزالي

لما ألف الغزالي كتابه " إحياء علوم الدين " ووصل إلى المغرب الإسلامي أحدث جدلاً كبيراً، ومناقشات متعددة في الأوساط السياسية، والفكرية وانقسم الناس حول هذا الكتاب بين مؤيد ورافض وقد أقدمت السلطة السياسية المرابطية على منع " الإحياء " من التداول بين الناس وعززت ذلك بعملية الإحراق. (٢)

وفي هذا الجو المُضَيق فيه على الغزالي نراه لم يعدم وجود طائفة من المعجبين به نافحوا عنه وعن كتابه كأمثال ابن النحوي الذي كان أكثرهم جرأة في التعبير عن موقف الرفض والاستنكار و والانتصار لعدم إحراق كتاب " الإحياء" وقد أفتى بعدم لزوم أيمان من أقسم على عدم اقتنائه للكتاب، بل زاد على ذلك حين أرسل رسالة إلى أمير المسلمين يعرفه بالشيخ الغزالي، وعلو مقامه، وأن يحسن الظن به.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق / أبي القاسم الشافعي / ج٥٥/ دار الفكر، بيروت ١٩٩٥/ ت،محب الدين أبي سعيد العمري / ص٢٠٠

(٢) ذكر صاحب المنتظم :أن الغزالي أقام ببيت المقدس ودمشق مدة يطوف المشاهد، وأخذ في تصنيف كتاب الإحياء في القدس، ثم أتمه بدمشق إلا أنه وضعه على مذهب الصوفية، وترك فيه قانون الفقه، مثل أنه ذكر في محو الجاه، ومجاهدة النفس أن رجلا أراد محو جاهه فدخل الحمام فلبس ثياب غيره ثم لبس ثيابه فوقها، ثم خرج يمشي على مهل حتى لحقوه فأخذوها منه وسمي سارق الحمام. وذكر مثل هذا على سبيل التعليم للمريدين قبيح لأن الفقه يحكم بقبح هذا، فإنه متى كان للحمام حافظ وسرق سارق قطع، ثم لا يحل لمسلم أن يتعرض لأمر يأثم الناس به في حقه، ومثله كثير ليس هذا موضعه. وقد جمع أغلاط الكتاب وسماه ' إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء ' وأشار إلى بعض ذلك في كتابه المسمى ' بتلبيس إبليس ' ينظر: المنتظم ج ١٧ ص ١٢٤، ١٢٥.

ولم يكن دفاع ابن النحوي عن الغزالي ناجماً عن حب وإعجاب به فحسب، بل كان ينم عن علاقة روحية بينهما[١] تظهر من خلال الأبيات التي نظمها الأول في حق الثاني قائلاً [٢]:

أبو حامد أحيا من الدين علمه وجدد منه ما تقادم من عهد
ووفقه الرحمن فيما أتى به وألهمه فيما أراد إلى الرشد
ففصلها تفصيلاً ثم أتى بها فجاءت كأمثال النجوم التي تهدي

وفاته :

عاد إلى بيته بعد رحلة طويلة وقد اتخذ في جواره مدرسة لطلبة العلم، وخانقاه للصوفية وكان قد وزع أوقاته على أحوال الحاضرين من ختم القرآن ومجالسة أهل القلوب، بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته هو ومن معه عن فائدة إلى أن نقله الله إلى كريم جواره بعد مقاساة أنواع من القصد والمناوأة من الخصوم والسعي به إلى الملوك، وكفاية الله له وحفظه وصيانته عن أن تنوشه أيدي النكبات، أو ينتهك ستر دينه بشيء من الزلات[٣].

سأله بعض أصحابه قبيل موته فقال : أوصني، فقال : عليك بالإخلاص فلم يزل يكررها حتى مات، وكان ذلك في مدينة طوس عام ٥٠٥هـ، ١١١١م، بعد حياة تجرع خلالها ألواناً من الظلم والاضطهاد، وعانى فيها كثيراً من المحن والابتلاء، خاصة بعد تأليفه كتاب " الإحياء" الأمر الذي دفعه إلى معارضة ابن النحوي فنظم المنفرجة علّ الله يفرج بها كربه ويذهب عنه همه[٤].

---

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى /ج٢/ ص٧٤
(٢) خريدة القصر وجريدة العصر/ أبو الفرج الأصبهاني / ج ١٣، المجمع العلمي العراقي ١٣٥٧،١٩٥٥/ ص٣٢٥.
(٣) تاريخ مدينة دمشق / ص ٢٠٣،٢٠٤.
(٤) كشف الخفاء/ إسماعيل الجراحي /ج١ /مؤسسة الرسالة، بيروت،١٤٠٥، ط،٤، ت. أحمد القلاش ص١٤٢.

المنفرجتان(١)

أولاً: قصيدة ابن النحوي

اشْـــتَدِّي أزْمَـــةَ تَنْفَرِجِـــي ... قَـــدْ آذَنَ لَيْلُـــكِ بِالْبَلَـــجِ
وَظَـــلاَمُ اللَّيْـــلِ لَـــهُ سُـــرُجٌ ... حَتَّـــى يَغْشَـــاهُ أَبُـــو السُّـــرُجِ
وَسَـــحَابُ الخَيْـــرِ لَهَـــا مَطَـــرٌ ... فَـــإِذَا جَـــاءَ الإِبّـــانُ تَجِـــي
وَفَوَائِـــدُ مَوْلاَنَـــا جُمَـــلٌ ... لِسُـــرُوحِ الأَنْفُـــسِ وَالمُهَـــجِ
وَلَهـــا أَرَجٌ مُحْـــيٍ أَبَـــداً ... فَاقْصُـــدْ مَحْيـــاَ ذَاكَ الأَرَجِ
فَلَرُبَّتَمَـــا فَـــاضَ المحْيَـــا ... بِبِحُـــورِ المَـــوْجِ مِـــنَ اللُّجَـــجِ
وَالْخَلْـــقُ جَمِيعـــاً فـــي يَـــدِهِ ... فَـــذَوُو سَـــعَةٍ وَذَوُو حَـــرَجِ
وَنُـــزُولُهُمُ وَطُلُوعُهُـــمُ ... فَعَلَـــى دَرَكٍ وَعَلَـــى دَرَجِ
وَمَعَايِشُـــهُمْ وَعَـوَاقِبُهُـــمْ ... لَيْسَـت فـي المَشْـيِ عَلَـى عِـوَجِ
حِكَـــمٌ نُسِـــجَتْ بِيَـــدٍ حكَمَـــتْ ... ثُـــمَّ انْتَسَجَـــتْ بِالْمُنْتَسَـــجِ
فَـــإِذَا اقْتَصَـــدتْ ثُـــم انْعَرَجـــتْ ... فَبِمُقْتَصِـــــدٍ وَبِمُنْعَـــــرَجِ
شَـــهِدَتْ بِعَجَائبـــهَا حُجَـــجٌ ... قامَـــتْ بِـــالأَمْرِ عَلَـــى الْحِجَـــجِ
وَرِضـــاً بِقَضـــاءِ اللَّـــه حَجَّـــا ... فَعَلَـــى مَرْكُوزَتِـــهِ فَعُـــجِ
وَإِذَا انْفَتَحَـــتْ أَبْـــوَابُ هُـــدًى ... فاعْجِـــلْ لِخَزَائِنِهَـــا وَلِـــجِ
وَإِذَا حَاوَلْـــــتَ نِهَايَتَـــــهَ ... فاحْـــذَرْ إِذْ ذَاكَ مِـــنَ العَـــرَجِ
لِتَكُـــونَ مِـــنَ السُّبَّـــاقِ إِذَا ... مـــا جِئْـــتَ إِلَـــى تِلْـــكَ الفُـــرَجِ
فَهُنَـــاكَ العَـــيْشُ وَبَهْجَتُـــهُ ... فَلِمُبْتَهِـــــجٍ وَلِمُنْتَهِـــــجِ
فَهِـــجَ الأَعْمَـــالَ إِذَا رَكَـــدَتْ ... فـــإِذَا مـــا هِجْـــتَ إِذاً تَهِـــجِ
وَمَعاصِـــي اللَّـــه سَمَاجَتُهـــا ... تَـــزدَانَ لِـــذِي الخُلُـــقِ السَّمِـــجِ
وَلِطَاعتِـــــهِ وَصَبَاحَتِهَـــــا ... أَنْـــوَارُ صَبَـــاحِ مُنْبَلِـــجِ

(١) المنفرجتان شعر ابن النحوي والغزالي / زكريا الأنصاري / دار الفضيلة القاهرة /ت،عبد المجيد دياب /ص٤٠.

مَـنْ يَخْطِـبْ حُـورَ الْخُلْـدِ بِهَـا ... يَظْفَـر بالحُـورِ وَبِالْغُنْـجِ
فَكُـنْ المَرْضِـيَّ لَهَـا بِتُقًـى ... تَرْضَـاهُ غَـداً وتكُـونُ نَجِـي
وَاتْـلُ القُـرْآنَ بِقَلْـبٍ ذِي ... حَـزَنٍ وَبِصَـوْتٍ فِيـهِ شَجِـي
وَصَـلاةُ اللّيْـلِ مَسَافَتُهَـا ... فاذْهَـبْ فِيهَـا بـالْفَهْمِ وَجِـي
وَتَأَمَّلْهَـا وَمَعَانِيهَـا ... تـأْتِ الْفِـرْدَوْسَ وَتَنْفَـرجِ
وَاشْـرَبْ تَسْـنِيمَ مُفَجَّرِهَـا ... لا مُمْتَزِجـاً وَبِمُمْتَـزِجِ
مُـدِحَ العَقْـلُ الآتِيـه هُـدًى ... وَهَـوًى مُتَـوَلٍّ عَنْـهُ هُجِـي
وَكِتَـابُ اللهِ رِيَاضَتُـهُ ... لِعِقُـول الْخَلْـقِ بِمُنْـدَرِجِ
وَخِيَـارُ الْخَلْـقِ هُدَاتُهُـمُ ... وَسِـوَاهُمْ مِـنْ هَمَـجِ الْهَمَـجِ
وَإِذَا كُنْـتَ المِقْـدَامُ فَـلا ... تَجْـزَعْ فِـي الحَـرْبِ مِـنَ الـرَّهَجِ
وَإِذَا أَبْصَـرْتَ مَنَـارَ هُـدًى ... فـاظْهَرْ فَـرْداً فَـوْقَ الثَّبَـجِ
وَإِذَا اشْـتَاقَتْ نَفْـسٌ وَجَـدَتْ ... أَلَمًـا بالشَّـوْقِ المُعْتَلِـجِ
وَثَنَايَـا الحَسْـنَا ضَاحِكَـةٌ ... وَتَمَـامُ الضِـحْكِ علَـى الفَلَـجِ
وَعِيَـابُ الأَسْـرَارِ قَـدِ اجْتَمَعَـتْ ... بأَمَانَتِهـا تَحْـتَ الشَّـرَجِ
وَالرِّفْـقُ يَـدُومُ لِصَاحِبِـهِ ... وَالخَـرْقُ يَصِـيرُ إِلـى الهَـرَجِ
صَـلَوَاتُ اللهِ علَـى المَهْـديِّ ... الهَـادِي النَّـاسِ إِلـى النَّهَـجِ
وأَبـي بكْـرٍ فـي سِيرَتِـهِ ... وَلِسَـانِ مَقَالَتِـهِ اللَّهَـجِ
وَأَبـي حَفْـصٍ وَكَرَامَتِـهِ ... فِـي قِصـةِ سَـارِيَةَ الخُلُـجِ
وَأَبـى عَمْـرٍ و وَذِي النُّـورَيْنِ ... المُسْـتَحْي المسْـتَحْيَا الْـبَهِجِ
وَأَبـي حَسَـنٍ فـي العِلْـمِ إِذَا ... وَافَـى بِسَـحَائِبِهِ الخُلُـجِ
وصحابتـه وقرابتـه ... وقفـاة الأثـر علـى نهـج
وإذا بـك ضـاق الـذرع فقـل ... اشـتدي أزمـة تنفرجـي

ثانياً : قصيدة الغزالي(١)

الشـــــدَّةُ أوْدَتْ بالمُهَـــــجِ ... يـــا رَبِّ فَعَجِّـــلْ بالفَـــرَجِ
والأنْفُـسُ أضْـحَت فـي حَـرَجِ ... وبِيَـــدِكَ تَفْـــرِيجُ الْحَـــرَجِ
هَاجَـــتْ لِـــدُعَاكَ خَوَاطِـــرُنَا ... وَالوَيْـــلُ لَهَـــا إنْ لَـــمْ تَهِـــجِ
يَـا مَـنْ عَـوَّدْتَ اللُّطْـفَ أَعِـدْ ... عَادَاتُـــكَ بـــاللَّطْفِ البَهِـــجِ
واغْلِـق ذَا الضِّـيق وشدَّتِـهِ ... وافْـتَح مـا سُـدَّ مِـنَ الفُـرُجِ
عِجْنَـــا لِجَنَابِـــكَ نَقْصِـــدُهُ ... والأنْفُـــسُ فـــي أوْجِ الوَهَـــجِ
وَالِـــى أفْضَـــالَكَ يَـــا أَمَلِـــى ... يَـــا ضَـــيْعَتَنَا إن لَـــمْ نَعِـــجِ
مَـــنْ لِلْمَلْهُـــوفِ سِـــوَاكَ يَغِـــثْ ... أَوْ للمُضَّـــطَرِ سِـــوَاك نَجِـــي
واسِـــــاءَتُنا لَـــــنْ تَقْطَعَنَـــــا ... عَـــنْ بَابِـــكَ حتَّـــى لَـــمْ نَلِـــجِ
فلَكَـــمْ عَـــاصٍ أخْطَـــا وَرَجَـــاكَ ... أبَحْـــتَ لَـــهُ مَـــا مِنْـــك رجِـــى
يَـــا سَـــيِّدَنا يَـــا خَالِقَنَـــا ... قَـدْ ضَـاقَ الحَبْـلُ علـى الـوَدَجِ
وَعِبَـــادُكَ أضْـــحَوا فـــي أَلَـــمٍ ... مَـــا بَـــيْنَ مُكَيْـــربٍ وَشجِـــي
والأحْشَـــا صَـــارَتْ فـــي حَـــرَقٍ ... والأعْـــيُنُ تَمَـــارَت فـــي لُجَـــجِ
فَـــالأعْيُنُ صَـــارَتْ فـــي لُجَـــجٍ ... غَاصَتْ فـي المَـوْجِ مَـعَ المُهَـجِ
والأزمـــــةُ زَادَت شِدَّتُهـــــا ... يَـــا أزْمَـــةٌ علّـــك تَنْفَـــرِجِ
جِئْنَـــاكَ بِقَلْـــبٍ مُنْكَسِـــر ... وَلِسَـــانٍ بالشـــكْوَى لَهِـــجِ
وَبِخَـــوْفِ الزَّلَّـــةِ فـــي وَجَـــلٍ ... لَكِـــنْ بِرَجَائِـــكِ مُمْتَـــزِجِ
فكـم اسْتَشْـفى مَرْكُـومُ الـذَّنْبِ ... بنَشْـــــرِ الرَّحْمَـــــةِ والأرَجِ
وَبَعيْنِـــكَ مَـــا تَلْقَـــاهُ ومَـــا ... فِيـــهِ الأحْـــوَالُ مِـــن المزجِـــى
وَالفَضْـــل اتْمِـــمْ ولكـــن قَـــدْ ... قُلْـــتَ ادْعُـــونِي فَلَنْبَتَهِـــجَ
فَبِكُـــلِّ نَبِـــيٍّ نَسْـــأَلُ يَـــا ... رَبَّ الأرْبَـــاب وكـــلِّ نجـــي

(١) المنفرجتان / زكريا الأنصاري / ص١٥١

وَبِفَضْـــلِ الِّـــذكْرِ وَحِكْمِتِـــــهِ ... وَبِمَـــا قَـــدْ أَوْضَـــحَ مِـــنْ نَهَـــجِ
وَبِسِـــــرِّ الأَحْـــــرُفِ إِذْ وَرَدَتْ ... بَضِـــيَاءِ النُّـــورِ المنْبَلَـــجِ
وَبِسِـــــرِّ أُودِعَ فِـــي بَطْـــدِ ... وَبِمَـــا فِـــي وَاحِ مَـــعْ زَهَـــجِ
وَبِسِـــــرِّ البَـــاءِ وَنُقْطَتِهَـــا ... مِـــنْ بِسْـــمِ اللهِ لِـــذِي الـــنَّهَجِ
وَبِقَـــافِ القَهْـــرِ وَقُوَّتِهـــا ... وَبِقَهْـــرِ القَـــاهِرِ للمُهَـــجِ
وَبِبَـــرْدِ المَـــا وإِسَاغَتِـــهِ ... وَعُمُـــومِ النَّفْـــعِ مَـــعَ الثَّلَـــجِ
وَبِحَـــرِّ النَّـــارِ وَحِدَّتِهـــا ... وَبِسِـــرِّ الحُرْقَـــةِ والنُّضْـــجِ
وَبِمَـا طَعِمْتَ مِنَ التَّطْعِيم ومـا ... ضَـــرَحَتْ مِـــنَ الضَّـــرَجِ
يَـــا قَـــاهِرَ يـــا ذي الشـــدَّة يَـــا ... ذا الـبَطْش أغِـثْ يـا ذَا الحُجَـجِ
يَـــا ربّ ظَلَمْنَـــا أَنْفُسَنَـــا ... وَمُصِـــيبَتُنَا مِـــنْ حَيْـــثُ نَـــجِ
يَـــا ربّ خُلِقْنَـــا مِـــنْ عَجِـــلٍ ... فَلِهَـــذَا نَـــدْعُو بـــاللُّجَجِ
يَـــا ربّ وَلَـــيْسَ لَنَـــا جَلَـــدٌ ... أَنَّـــى والقَلْـــبُ عَلَـــى وَهَـــجِ
يَـــا رَبّ عَبِيـــدُكَ قَـــدْ وَفَـــدُوا ... ودَعَـــوك بِقَلْـــبٍ مُنْـــزَعِجِ
يَـــا ربِّ ضِـــعَافٌ لَـــيْسَ لَهُـــمْ ... أَحَـــد يَرْجُـــونَ لِـــذِي الهَـــرْجِ
يَـــا ربّ فُصَّـــاحُ الأَلْسُـــن قَـــد ... أَضْـــحُوا فِـــي الشـــدَّة كَـــالهَمَجِ
السَّـــابِقُ منَّـــا صَـــارَ إِذَا ... يَعْـــدُو يَسْـــبِقُهُ ذُو العَـــرَجِ
وَحِكْمَـــةُ ربِّـــي بَالِغَـــةٌ ... جَلَّـــت عـــن حَيْـــفٍ أَوْ عـــوجِ
والأَمْـــرُ إِلَيْـــكَ تُدَبِّـــرُهُ ... فَأَغِثْنَـــا بـــاللُّطف الـــبَهِجِ
وادْرِجْ فِـــي العفْـــوِ إِســـاءَتَنَا ... والخَيْبَـــةَ إِنْ لَـــمْ تَنْـــدَرِجِ
يَـــا نَفْـــسُ وَمَـــا لَـــكِ مِـــنْ فَـــرَجٍ ... إِلا مَـــوْلَاكِ لَـــهُ فعَـــجِ
وَبِـــهِ فَلُـــذِي وَبِـــه فُـــوزِي ... وَلُبَـــابِ مَكَارِمِـــه فَلَجِـــي
كَـــيْ تَنْصَـــلِحِي كَـــيْ تَنْشَـــرِحِي ... كَـــيْ تَنْبَسِـــطِي كَـــيْ تَبْـــتَهِجِ
وَيَطِيـــبُ مُقَامُـــكِ مَـــعْ نَفَـــرٍ ... أَضْـــحَوا فِـــي الجِنْـــدِس كالشَّـــرَجِ
وفُّـــوا للهِ بِمَـــا عَهَـــدُوا ... فِـــي بَيْـــعِ الأَنْفُـــس والمُهَـــجِ

وَهُـــمُ الهَـــادِي وَصَـــحَابَته ذُو الرّتْبَـــــة وَالعِطْـــــرِ الأرجِ
وَعَلَـــى الصـــدِّيقِ خَلِيفَتِـــهِ وكَـــذَا الفَـــاروقِ وكُـــلِّ نـــجِ
وَعَلـى عُثْمَـان شَـهِيد الـدّار أبِـي العِرْفَـانِ علَـى الـدّرج
وَأَبِـي الحَسَـنَينْ مَـعَ الأوْلاَدِ كـــذا الأزْوَاجِ وكُـــلِّ شـــجِ
قـومٌ سـكنوا الجَرْعَـاء وَهُـم شَـرَفُوا الجَرْعَـاء وَمُنْعَـرجِ
جَـاءوا للكَـوْنِ وَظُلْمَتُـهُ عَمَّـت وَظَـلاَمُ الشِّـرْكِ دَجِـى
مَـا زَالَ النَّصْـرُ يَحفُّهـم والظُّلْمَـةُ تُمْحَـي بـالبَلَجِ
حَتَّـى نَصَـرُوا الإسْـلاَمَ وَعَـادَ الـدِّينُ عَزِيـزاً فـي بَهَـجِ
مَـا مَـالَ المَـالُ وَحَـالَ الحَـالُ وسَـارَ السّـارِي فـي الـدَّلَجِ
يَـا رَبّ بِهِـمْ وَبـآلِهِم عَجِّـلْ بالنَّصْـرِ وبـالفَرَجِ
واجْعـل ذِكْـرِ الإخْـلاَصِ لَنَـا مُحْـيٍ قَلْبـاً يَـا ذَا الفَـرَجِ
واخْـتِمْ عَمَلِـي بِخَوَاتِمِهَـا لأكُـونَ غَـداً فـي الحَشْـرِ نَـجِ

المبحث الثاني

معارضة الإمام الغزالي للإمام ابن النحوي
ورصد مظاهر التشكيل الجمالي المشتركة بينهما

اشتهرت قصيد " المنفرجة" لابن النحوي على أنها لتفريج الكروب لما هي مشتملة عليه من حسن التوسل وكمال التبتل، وفرط الذل والانكسار لدى العزيز الغفار،وذكر تاج الدين السبكي أنها مجربة لكشف الكروب، وإن كثيراً من الناس يعتقدون أنها مشتملة على الاسم الأعظم، وأنه ما دعا بها أحد إلا استجيب له، كما ذكر أنه كان يسمع والده إذا أصابته أزمة ينشدها "[١]

وقد اختار الغزالي هذه القصيدة ؛ليعارضها وهذا لا يدل على إعجاب الشاعر الثاني بالنص الذي يعارضه فحسب .كما هو الحال في الكثير من المعارضات . بل ينم أيضاً على قوة التشابه الثقافي والفكري، والنفسي مما أدى لتقارب الشاعرين على الرغم من البعد المكاني.

يقول ابن النحوي في المطلع[٢] :

اشْتَدِّي أَزْمَةً تَنْفَرِجِي قَدْ آذَنَ لَيْلُكِ بِالْبَلَجِ
وَظَلاَمُ اللَّيْلِ لَهُ سُرُجٌ حَتَّى يَغْشَاهُ أَبُو السُّرُجِ

يقول الغزالي معارضاً له[٣]

الشَّدَّةُ أَوْدَتْ بِالمُهَجِ يَا رَبِّ فَعَجِّلْ بِالفَرَجِ
والأَنْفُسُ أَضْحَت فِي حَرَجِ وبِيَدِكَ تَفْرِيجُ الْحَرَجِ

وعلى ضوء الدرس التحليلي للقصيدتين نستطيع أن نرصد أوجه الشبه بينهما، وأن نبين المواطن التي اقتدى فيها الشاعر المعارِض بالنص المعارَض بما يحقق لوناً من التجانس بين النصين، و كذلك نستطيع توضيح أوجه الاختلاف بينهما، إيماناً بدور الفروق الفردية بين الشاعرين من ناحية، وطبيعة التجربة أو قوتها من ناحية أخرى.

(١) طبقات الشافعية الكبرى/ للسبكي / صـ٦٠.
(٢) المنفرجتان شعر ابن النحوي والغزالي / زكريا الأنصاري / ص٤٠
(٣) السابق / ص ١٥١

أما على مستوى التجانس فأول ما يطالعنا من مظاهر التوافق بين النصين هو اتفاقهما في البحر الشعري وهو *بحر الخبب[١] الذي يصبح مؤشراً على بُعد الشاعرين عن الحس الإيقاعي التقليدي، ومتابعة الأنماط الجديدة التي حرص عليها الشعراء منذ العصر العباسي.

* وكذلك الروي وهو " الجيم " وحركة الروي المكسور المفصح عن القالب النفسي الذي انتظمت فيه القصيدتان

* والموضوع وهو شكوى الشاعرين من زيادة المحن،مع حسن التبتل لله في طلب تفريج الكرب.

عناصر التشكيل الجمالي بين النصين :

يلاحظ أن النصين قد اتفقا في افتتاح كل منهما بالتصريع[٢] وهذا يدل على أن كلا الشاعرين يدرك القيمة الموسيقية الكامنة في التصريع من خلال مطلع القصيدة حيث ‘أن البيت الأول بمثابة المفتاح الموسيقي، ومن خلاله يستطيع القارئ متابعة النسج الموسيقي للقصيدة والتنبؤ بقافيتها والوقوف على لحنها عند سماع أول شطر منها وتأكيداً على هذا الدور

(١) وهو الصورة الأكثر وروداً من بحر المتدارك الذي تداركه الأخفش على الخليل حيث تركه ولم يذكره من جملة البحور، وعدم ذكر الخليل له كما ذكر الدمنهوري ؛ لأنه لم يبلغه وقيل لأنه مخالف لأصوله لدخول التشعيث والقطع في حشوه وهما مختصان بالأعاريض والضروب،فالمتدارك هو الوزن الوحيد الذي يجوز أن تدخل العلل " التشعيث، والقطع " حشوه الأمر الذي يؤدي بتفعيلاته " فاعلن " لأن تصبح (فعَلن أو فعْلن)وبما أنها علل إذا دخلت لزمت وقد أدت إلى أن يتخلق من المتدارك وزن آخر مختلف تماماً عنه وهو وزن الخبب ووزنه أسرع من المتدارك،كما أن خلو ايقاعه من الوتد يجعله شديد الهبوط، وإن كان متميزاً وواضحاً في الأذن لكن دون ضجة أو جلبة، وقد سمي بالخبب لقصر أجزائه، ولأن تقطيع أبياته يحاكي في السمع ركض الخيل وخببها، ينظر :حاشية الدمنهوري / مكتبة الطوبي، مصر ١٣٢٢،١٩٠٤هـ / صـ٦٤ .٦٧، بتصرف. ٠٢٢٢

(٢) هو: لون موسيقي يقوم على استواء آخر جزء في صدر البيت وآخر جزء في عجزه في الوزن والروي والإعراب.خزانة الأدب /ابن حجة الحموي /ج١/ط١، المطبعة الخيرية، القاهرة ١٣٠٤/صـ٣٦٦

الإيقاعي فقد صرع ابن النحوي أول بيتين في القصيدة، وتابعه الغزالي في ذلك

يقول ابن النحوي في المطلع :

اشْـــتَدِّي أزْمَـــةَ تَنْفَرِجِـــي قَـــدْ آذَنَ لَيْلُـــكِ بِـــالْبَلَجِ
وَظَـــلاَمُ اللَّيْـــلِ لَـــهُ سُـــرُجٌ حَتَّـــى يَغْشَـــاهُ أَبُـــو السُّـــرُجِ

يعارضه الغزالي في قوله :

الشـــــدَّةُ أوْدَتْ بـــــالمُهَجِ يـــا رَبِّ فَعَجِّـــلْ بـــالفَرَجِ
والأنْفُـسُ أضْـحَت فـي حَـرَجِ وبِيَـــدِكَ تَفْـــرِيجُ الْحَـــرَجِ

وابن النحوي شاعر مغربي ورث من بيئته الحس الموسيقي ؛ فحرص على إحداث تناغم داخلي بين الأشطار الأربع الأولى، ثم نراه يصرع بيتاً آخر داخل القصيدة ؛ لتوليد ومضة نغمية تربط مطلع القصيدة بخاتمتها،والذي يعد التصريع نعتاً لها كما يقول قدامة ابن جعفر :"إن الفحول والمجيدين من الشعراء القدماء والمحدثين يتوخون ذلك ولا يكادون يعدلون عنه، وربما صرعوا أبياتاً أخر من القصيدة بعد البيت الأول وذلك يكون من اقتدار الشاعر وسعة بحره "(١)

يقول الشاعر:

شَـــهِدَتْ بِعَجَائِبِهَـــا حُجَـــجٌ قامَـــتْ بِـــالأَمْرِ عَلَـــى الْحِجَـــجِ

وهذا الحرص من ابن النحوي على وجود هذه الظاهرة في غير قصيدة المدح يدخله ضمن ما يراه بعض الباحثين من أن شعراء الأندلس" قد توسلوا

(١) نقد الشعر / قدامة بن جعفر / ت.محمد عبد المنعم خفاجي / دار الكتب العلمية / صـ٨٦.

في مطالع مدائحهم بالتصريع ؛لإثراء معجمها الإيقاعي من خلال التجانس الصوتي الذي ينشأ بين المقاطع في نهاية كل مصراع من البيت، وما ينجم عن تكرار الصوت من أثر سمعي يشد انتباه المتلقي ويؤثر في نفسه "[1]

وقد حرص الغزالي على متابعة ابن النحوي فبعد أن حاكاه في تصريع المطلع نراه يصرع بيتين آخرين داخل القصيدة **فيقول:**

فـالأعْيُنُ صَـارَتْ فـي لُجَـج غَاصَتْ فـي المَوْجِ مَعَ المُهَجِ

ويقول:

يَـا نَفْـسُ وَمَـا لَـكِ مِـنْ فَـرَج إلا مَـوْلَاكِ لَـهُ فعَـجِ

(١) قصيدة المديح في الأندلس /أشرف محمود نجا / دار المعرفة الجامعة الإسكندرية / ط٢،١٩٩٦ / صـ٢٠٦.

*** موقف الشاعرين من البديع :**

من الواضح أن البديع يعد سمة أساسية من سمات الفن الشعري عند ابن النحوي والغزالي فمطالعة النصين تدلان على أنهما يمتلكان قدرة عليه،فقد لونا الأبيات بصنوف البديع فنجد الطباق، والجناس، والتتميم، والإيغال،واللف والنشر....وغيرها من المحسنات التي حرص عليها الشاعران، والتي ظهرت بصورة مكثفة عند ابن النحوي جعلته لم يترك بيتاً بلا صورة، ولا صورة بلا بديع، ولنتوقف ملياً عند نموذجين من النصين يتضح من خلالهما ما نقول.

يقول ابن النحوي[1] :

وَظَــلاَمُ اللَّيْــلِ لَــهُ سُــرُجٌ	حَتَّــى يَغْشَــاهُ أَبُــو السُّــرُجِ
وَسَــحَابُ الخَيْــرِ لَهَــا مَطَــرٌ	فَــإِذَا جَــاءَ الإِبّــانُ تَجِــى
وَفَوَائِــدُ مَوْلاَنَــا جُمَــلٌ	لِسُــرُوحِ الأَنْفُــسِ وَالمُهَــجِ
وَلَهــا أَرَجٌ مُحْــيِ أَبَــداً	فَاقْصُــدْ مَحْيَــا ذَاكَ الأَرَجِ
فَلَرُبَّتَمَــا فَــاضَ المحــيَا	بِبِحُــورِ المَــوْجِ مِــنَ اللُّجَــجِ
وَالْخَلْــقُ جَمِيعــاً فــي يَــدِهِ	فَــذَوُو سَــعَةٍ وَذَوُو حَــرَجِ
وَنُــزُولُهُمُ وَطُلُوعُــهُمُ	فَعَــلَى دَرَكٍ وَعَلَــى دَرَجِ
وَمَعَايِشُــهُمْ وَعَوَاقِبُــهُمْ	لَيْسَت فــي المَشْــيِ عَلَــى عِـوَجِ
حِكَــمٌ نُسِــجَتْ بِيَــدٍ حكَمَــتْ	ثُــمَّ انْتَسَــجَتْ بِالْمُنْتَسَــجِ

فالأبيات توضح أن الكروب الشديدة لابد في أثنائها من لطائف تخفف معها الآلام حتى يتفضل الله بالفرج التام الذي لا ألم معه ولا كرب بعده ، كالليل المظلم جعل الله فيه الكواكب يقل بها ظلامه حتى يدخل النهار فيُذهِب بظلامه وتنبسط النفس بضوئه، وانطلاقاً من هذا التفاؤل يحث الشاعر على التزام الصبر في أزمنة المحن ؛ لأنها لا تنقضي إلا بانقضاء

(١) المنفرجتان شعر ابن النحوي والغزالي / زكريا الأنصاري / ص٤١.

زمانها، ولا يأتي الفرج إلا في وقتٍ مقدر مثله مثل سحاب الخير الذي يكون عنها الخصب بنزول المطر في وقت معلوم، ولذا فالعاقل لا يسعه إلا الصبر والتسليم لله الذي منَّ علينا بنعم لا تحصى جعلها الله راحة لأنفسنا، وعبيراً يحي الموات من قلوبنا، فإذا امتثلت الأمر وتقبلت الخطب فقد غمرك فضل الله في الدارين فيفيض عليك خيراً كثيراً كالبحور المتلاطمة أمواجها، وكن على يقين أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ؛ لأن أمر المخلوق في غناه وفقره، وطلوعه ونزوله وحياته ومماته بيد الله مقدر لديه.

من الواضح أن ابن النحوي يمتلك ناصية البديع مما جعله يقرن بين ألوانه بصورة مال بها إلى الصنعة أكثر من ميلها إلى الطبع، ففي البيت الأول جناس تام بين " سرج،والسرج " والمقصود بالأولى الكواكب غير الشمس وأبو السرج الشمس وجعلت أباها ؛ لأنها الأصل إذ بنورها يذهب نور تلك الكواكب.

وفي البيت الثاني رد العجز على الصدر في قوله " جاء، تجي "

وفي البيت الثالث إيغال[1] في قوله " المهج" فالمشهور أن الروح هي النفس ولكن اختلاف اللفظ سوَّغ عطفها عليها وفي البيت الرابع رد العجز على الصدر، والجناس بين " أرج والأرج" وبين " محي . ومحيا"

والقيمة الفنية في الجناس ناقصاً أو تاماً إنما تكمن في الجانب الإيقاعي بين المتجانسين " حيث إن الجانب الصوتي يكاد يكون هو الركيزة التي يعتمد عليها فن الجناس وما الجانب الصوتي إلا الإيقاع "[2]

وفي البيت الخامس استعان الشاعر بالأسلوب التصويري حيث شبه المحيا في كثرة الأنوار بوادٍ فيه ماء ملأه وارتفع على جوانبه والجامع بينهما

---

(١) الإيغال : هو ختم البيت بما يفيد نكتة يتم بدونها لزيادة المبالغة. التعريفات / علي بن محمد الجرجاني / ت. إبراهيم الابياري / دار الكتاب العربي، بيروت ط.١/ ١٤٠٥ / صـ ٥٩.

(٢) البديع تأصيل وتجديد / منير سلطان /منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨٦ / ٨٢.

المحلية وهي كون الوادي محلاً للأنوار والمعارف، وقد طوى ذكر المشبه به وأتى بلازمه وهو الفيض فتشبيه المحيا بالوادي استعارة بالكناية واثبات الفيض له استعارة تخييلية، ثم ذكر أن الفائض من ذلك المحيا " بحور" بمعنى أنه انبسط على الجوارح وسائر الجسد من المحيا المشبه بالوادي أنوار عظيمة وأسرار كثيرة شبيهة في كثرتها وانتشارها وتراكمها بالبحور، ويلاحظ ان الاستعارة في لفظ " يفيض" أصلية مصرحة مرشحة بالموج واللجج(١).

وفي البيت السادس : الترديد وهو أن تُعَلَّق لفظة بمعنى ثم بآخر(٢) كما علق ذو أولاً بالسعة وثانياً بالحرج،ولا يخفى دور الطباق في تجلية التناقض في أحوال الخلق.

وفي البيت السابع استخدم الشاعر الطباق الذي بدوره يعين على إحداث التوازن الضروري لاستمرار الكون والكائنات المادي منها والمعنوي(٣) فسقوط الناس وعلوهم حساً كان أو معنوياً على دركٍ ودرجٍ حسياً أيضاً ومعنوياً وقد أحدث الطباق تقسيماً داخلياً أوضح المعنى القائم على التصوير الحركي.

كذلك يبدو اللف والنشر بين شطري البيت وهو: أن يأتي بأشياء تقابل بأشياء بعدها مرتبة أو غير مرتبة، يرد كل منها إلى ما يناسبه، بالإضافة إلى الجناس اللاحق بين درج ودرك.

ويتجلى في البيت الثامن حرص الشاعر على استخدام الصورة، فأحوال الناس في الدنيا وعواقبهم في الآخرة تأتي إليهم مستقيمة السير غير معوجة ؛ لأنها تسير بتقدير العلي القدير، فالشاعر يصور حصول الأمور الدنيوية والجزاءات الأخروية بالماشي لحصول هذه الأشياء متتالية وليست مرة واحدة على سبيل الاستعارة بالكناية، واثبات المشي لها استعارة تخييلية.

وبالتأمل في البيت العاشر يبدو لنا صورة حسية توضح تعلق المقادير بالخلق وتناسبها لهم بالخيوط التي تختار لما بينها من تناسب ثم تنسج ،

(١) المنفرجتان شعر ابن النحوي والغزالي / زكريا الأنصاري / ص٤١.
(٢) خزانة الأدب /ج١ / ٣٥٩.
(٣) البديع تأصيل وتجديد/ صـ١١٧.

فتشبيه هذه الأمور بالخيوط المنسوجة استعارة بالكناية، واثبات النسج استعارة تخييلية، وذكر اليد ترشيح لها.

والتسميط في البيت واضح، حيث عمد الشاعر إلى تقسيمها إلى مقاطع على سجع يخالف سجع القافية، فسكتة العروض توافق السكتة المعنوية في التسميط بينما لا يشترط هذا التوافق في التصريع و وقد أثمر موسيقية رائعة لما آتى بالأفعال الثلاثة على سجع واحد " نُسِجَتْ، حَكَمَتْ، انتَسَجَتْ"

كما أن بين " نسجت، وانتسجت، بالمنتسج " شبه الجناس فالجامع بين هذه الكلمات هو الاشتقاق،فالمقادير " قضيت " بأمر الله ثم " التحمت" بـ " المقضي عليه من الخلق.

وتتابع هذه الألوان البديعية والبيانية تؤكد ظاهرة تأثر الشاعر بالمذهب الكلامي والذي يبدو في أكثر من ملمح، وهذا المذهب كما يرى بعض الباحثين إنه " يتضمن في جانب منه عملية جدلية في اللغة قائمة على الوعي المكثف بعلاقات التجانس والتضاد والتجاور والتناظر بين أجزاء الكلام في شطري البيت، كما يتضمن في جانبه الآخر القول الشعري القائم على الاستدلال والتعليل والتمثيل،...والمذهب الكلامي من هذا المنظور يمثل أقصى تجليات علم الكلام والفلسفة في اللغة الشعرية "[1]

ولعل لغوية ابن النحوي وقراءته لعلم الكلام هو ما يفسر لنا عنايته بألوان البديع، واهتمامه بالتصوير ومتابعة جوانب الصورة وهذا ما سارت عليه القصيدة بأكملها

والآن فما موقف النموذج المعارِض من تلك الظواهر التي رصدناها في قصيدة ابن النحوي ؟

من الواضح بمطالعة نص الغزالي أنه تأثر بمن يعارضه في ظهور أثر المذهب الكلامي القائم على الوعي المكثف بعلاقات التجانس والتضاد... وهذا ليس غريباً عل شاعر درس المنطق والفلسفة وعلم الكلام وأصبح مرجعاً لرواد العلم فيها هذا من جانب ومن جانبٍ آخر فإن مبعث التجربة

(١) مجلة فصول / مجلد ١٤/ العدد الثاني / ١٩٩٥/ صـ١٤٢.

عند الشاعرين أصبح جامعاً بينهما على المستوى الشعوري والنفسي والذي تبلورت من خلاله التجربة التي أدت إلى التجاوب الفني الناتج من إعجاب الشاعر الثاني بالأول، وهذا نموذج من نص الغزالي يتضح من خلاله ما ذهبنا إليه، يقول الشاعر :

يَـــا سَـــيِّدَنا يَـــا خَالِقَنَـــا قَـدْ ضَـاقَ الحَبْـلُ علـى الـوَدَجِ
وَعِبَـــادُكَ أضْـــحَوا فـــي أَلَـــمٍ مَـــا بَـــيْنَ مُكَيْـــرِبٍ وَشجـــي
والأحْشَـــا صَـــارَتْ فـــي حَـــرَقٍ والأعْـــيُنُ تَمَـــارَت فـــي لُجَـــجِ
فـــالأعْيُنُ صَـــارَتْ فـــي لُجَـــج غَاصَتْ فـي المَـوْجِ مَـعَ المُهَـجِ
والأزمـــــــةُ زَادَت شِدَّتُـــــــها يَـــا أزْمـــةٌ عـــلَّك تَنْفَـــرجِ
جِئْنَـــاكَ بِقَلْـــبٍ مُنْكَسِـــر وَلِسَـــانٍ بالشـــكْوَى لَهـــجِ
وَبِخَـــوْفِ الزَّلَّـــةِ فـــي وَجَـــلٍ لَكِـــنْ بِرَجَائِـــكِ مُمْتَـــزِجِ
فكـم اسْتَشْـفى مَرْكُـومُ الـذَّنْبِ بنَشْـــــر الرَّحْمَـــــةِ والأرَجِ

فالأبيات السابقة تصور لنا وطأة البلايا ووقع المحن وما خلفته من آثار لم يسلم منها الشاعر ظاهراً وباطناً، ويالها من آلام متناقضة فبينما الأحشاء تلتهب ناراً من تراكم البلايا، فإن الأعين تغوص في لجج من بحور المحن، تلك المحن التي إذا استحكمت من صاحبها ضاق عليه حاله تماماً كضغط الحبل على الودج الأمر الذي يكون سبباً في إزهاق الروح ؛ وقد جاء هذا المعنى باستعارة الإحراق الذي يدل في أصله على لذع النار لكل ما هو مؤلم حسياً كان أو معنوياً، ثم نراه يجسد عمق التناقض بين ألوان المعاناة التي عاشها الشاعر ظاهراً وباطناً ثم يستكمل جزئيات الصورة مبالغة في وصف تناهي الشدة وكمال حصول البلية ؛تأكيداً لعظم شأنها وقوة سلطانها حتى إن "كرام الناس نزلوا بوادٍ من البلاء عميق وقد غاصوا في لجج من المصائب والنوائب، ومن معاني الكرب الظاهرة ظهور البدع واختفاء شعائر الإسلام فصارت أعين الإسلام في أبحر من البدع كما غارت كمالات

القلوب في لجج من العيوب "[1] ولذا فنحن أفقر ما يكون إلى الله وقد جئنا بقلب ذليل وبلسان مولع بالشكوى إلى العزيز الرحيم الذي إذا أتاه العبد مهما تراكمت ذنوبه وتلاطمت كأمواج البحر أقبل عليه بوابل من الرحمة.

وقد أجاد الشاعر في حمل القارئ على الإحساس بتلك الأزمة حين صور جوانبها، وأبرز مهالكها في صورة محسوسات يستطيع القارئ أن يتعرف من خلالها على شكل الأزمة ولونها، كما يستطيع أن يستمع إلى صوتها ويتلمس حركتها .

(١) البدر المتلالي في شرح منفرجة الغزالي / أحمد بن ياسين/٣٤.

القافية :

تمثل إشارات القافية أحد عناصر المداخلة بين النصوص التي يعارض بعضها بعضاً ، وتنهض دليلاً على مدى وعي الشاعر المعارِض بقيمة النص المعارَض ، وإعجابه به فيشير الرصد الإحصائي لعملية التداخل بين قصيدة ابن النحوي والغزالي إلى أن ثلاثاً وثلاثين قافية من مجموع اثنين وأربعين قافية هي قوافي منفرجة ابن النحوي أي ما يمثل ٧٨% تقريباً و قد حضرت حضوراً تاماً في منفرجة الغزالي التي تبلغ قوافيها سبعاً وخمسين قافية أي بنسبة ٥٧% تقريباً وهي نسبة عالية جداً تنهض كمؤشر على قوة التداخل بين النصين ، ومن القوافي التي ظهرت في النص الثاني على سبيل المثال :"الفرج ، المهج ، اللجج، الهرج ، الأرج ، عوج، الفُرّج ،حرج ، نج ،البهج ،لهج ، المنبلج ، ولج..."

ومن الملاحظ أن إحساس الغزالي بالنص الذي يعارضه لم يدفعه إلى تكرار هذه القوافي تكراراً تاما يفقده خصوصيته ،فثمة قوافي تكررت بألفاظها ومعانيها لكن توظيف هذا المدلول ومعناه مرتهن بالسياق الذي جاء فيه عند الشاعر المعارِض وبهذا يكون التداخل في بعض القوافي عن طريق " استعارة كلمة القافية بمعناها وصياغتها المستعملة في القصيدة النموذج "[1] وعندئذٍ يبقى للنص المعارِض خصوصية تضفي على المعارضة قيمة فنية ونستطيع أن ندعم هذا الحكم ببعض الأمثلة :

١ . فبينما ترد إشارة القافية " حرج" وهي بمعنى الضيق في قول ابن النحوي :

وَالْخَلْقُ جَمِيعاً فِي يَدِه فَذَوُو سَعَةٍ وَذَوُو حَرَجِ

(١) المعارضات الشعرية دراسة تاريخية نقدية / عبد الرحمن إسماعيل / النادي الأدبي بجدة / ط،١ ،١٩٩٤م، ٣٤٤.

وقد أفادت في البيت عموم الضيق ليشمل المادي منه والمعنوي ، إذ أن أحوال المخلوقين بيد الله فذو يسار وذو ضيق وتأكيداً على إرادة الشاعر عموم المعنى فقد نون كلمة " حرج " بعد تنوين كلمة" سعة " ليشملا الغنى والفقر ، والعلم والجهل ، ونزول المحن وعدمها ،إلا أن الجزء المعنوي الذي يتضمنه عموم الحرج كان هو المقصود من اللفظ عند الغزالي عندما أسقطه على نفسه ليصور من خلاله ما حل بنفسه من الشدائد والمحن التي لا يملك كشفها إلا الله تعالى ، يتضح ذلك في قول الشاعر:

والأَنْفُسُ أضْحَت في حَرَجٍ وبِيَدِكَ تَفْرِيجُ الْحَرَجِ

٢. جاءت إشارة القافية " تهج " في قول ابن النحوي :

فَهِجَ الأَعْمَالَ إِذَا رَكَدَتْ فَإِذَا ما هِجْتَ إذاً تَهِجِ

وهذه اللفظة تعني الحركة(١)

وقد استعملها ابن النحوي استعمالاً مجازياً يحث من خلاله على المداومة على الأعمال الصالحة تلك الأعمال التي أظهرها الشاعر في صورة كائن حي يتحرك ويسكن ، فعلى من يطلب الجنة أن يحرك تلك الأعمال أي : يداوم عليها عندئذٍ يسعد بفعلها وتدوم له.وقد جاءت هذه اللفظة في قول الغزالي :

هاجَتْ لِدُعَاكَ خَوَاطِرُنَا وَالوَيْلُ لَهَا إِنْ لَمْ تَهِجِ

مسبوقة بالنفي فأفادت السكون المقابل للحركة عند ابن النحوي ، إلا أن المجاز هنا في صرف السكون إلى عدم التضرع و عدم اللجوء لله ،

(١) هاج الشيء، يهيج هيجاً : ثار لمشقة أو ضرر ، كما أن أغلب مشتقات اللفظة فيها معنى الحركة فالهياج : القتال ، تهايجوا : تواثبوا ، يوم هيج: ريح أو غيم أو مطر ، وهِج:من زجر الناقة. ينظر : القاموس المحيط / للفيروزبادي / ج ١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت /صـ ٢٧٠ / و لسان العرب / محمد أبو بكر الرازي/ج٢ ، لبنان ، بيروت ١٩٩٥ /صـ٣٩٥.

فالشاعر يصور حال المكروبين في تضرعهم لرب العالمين ، آملين تفريج الكرب ولم لا ؟! وهو الملاذ والملجأ ، فقد خاب وخسر من لم يلجأ إليه

المعجم اللغوي :

يرصد الدرس التحليلي في إطار المعارضة بين النص النموذج والنص المعارض تشابهاً في الصياغة من حيث الجزالة والقوة ، فالنصان يدلان على امتلاك الشاعرين ثروة لغوية كبيرة ظهر من خلالها تأثرهما بالقرآن الكريم والسنة المطهرة ، وقد بدا ذلك منذ المطلع حين أيقن ابن النحوي أن اشتداد الشدة يؤذن بالفرج إيماناً منه بقوله تعالى:[إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا] {الشرح:٦}

فاستهل القصيدة بجزء من حديث رسول الله ﷺ القائل فيه:" اشتدي أزمة تنفرجي "(١) فاستعار ابن النحوي هذه الألفاظ وحكاه الغزالي في ذلك.

كذلك نلمح تضمين ابن النحوي قصيدته لمعاني القرآن الكريم أيضاً في مثل قوله :

وَاشْرَبْ تَسْنِيمَ مُفَجَّرِهَا لا مُمْتَزِجاً وَبِمُمْتَزِجِ

وقد استقاه من قوله تعالى :[وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ۞ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ] {المطَّففين: ٢٧ ٢٨} .

وكذلك يظهر تأثر ابن النحوي بألفاظ الحديث في البيت القائل :

وَالرِّفْقُ يَدُومُ لِصَاحِبِهِ وَالخَرْقُ يَصِيرُ إِلى الهَرَجِ

---

(١) رواه العسكري والديلمي والقضاعي بسند فيه كذاب عن علي قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله والأزمة الشدة وسنة القحط والمجاعة وأصل الأزمة الحمية والإمساك بالأسنان بعضها على بعض ومنه قيل للفرس قد أزم على اللجام والمعنى أبلغي يا شدة في الشدة النهاية حتى تنفرجي وذلك أن العرب كانت تقول إن الشدة إذا تناهت انفرجت قال النجم وكذب من قال أنه اسم امرأة أخذها الطلق فقيل لها ذلك نقله أبو موسى المديني في ذيل الفرس عن بعض الجهال وقال هذا باطل
كشف الخفاء ج ١ / ص ١٤١، والحديث موضوع ومعناه : ' أبلغي يا شدة في الشدة النهاية حتى تنفرجي ' كنز العمال/ ج ٣/ ص ١١١.

فمن سلك الرفق مع الناس في تحصيله للأمور الدينية والدنيوية دامت له فاستفاد وأفاد ، وهدى واهتدى ومن كلف نفسه فوق طاقتها وعامل الناس بصلابة الجانب لم تدم له لجهله فضلَّ وأضل[1] وهذا المعنى بألفاظه استوحاه الشاعر من قول النبي :" الرفق يمن والخرق شؤم وإذا أراد الله بأهل بيت خيرا أدخل عليهم الرفق فإن الرفق لم يكن في شيء قط إلا زانه وإن الخرق لم يكن في شيء قط إلا شانه " [2]

فالتضمين والاقتباس يظهران بوضوح في كثير من ألفاظ ومعاني النصين ومنه في منفرجة الغزالي قوله :

يَطِيبُ مُقَامُكِ مَعْ نَفَرٍ أضْحَوا في الحِنْدِس كالشَّرجِ
وفُوا للهِ بِمَا عَهَدُوا فِي بَيْعِ الأنْفُس والمُهَجِ

هذان البيتان جاءا في إطار دعوة الشاعر للنفس بالاستقامة على الأمر الشرعي حتى تحظى بالمقام مع النبي وصحبه ، فترقى لدرجاتهم ، وتسعد بهناءة العيش معهم ، وهم أولئك النفر الكرام والسادة العظام بذلوا أنفسهم ووفوا ما عاهدوا الله عليه وبالغوا في الوفاء حتى صار الوفاء بيعا.

ومن الواضح أن هذه المعاني مستوحاة من قوله تعالى :[مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا] {الأحزاب:٢٣} وكذلك قوله تعالى: " إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة" التوبة :من الأية١١١.

(١) المنفرجتان / صـ١٢٠.

(٢) شعب الإيمان / للبيهقي/ ج ٦ /دار الكتب العلمية ، بيروت ،ط١، ١٤١٠هـ/ ت.محمد السعيد زغلول/ ص ١٣٩.

وبعد فألفاظ النصين مختارة بدقة ؛ لتأدية ما أراده الشاعران لها ، وإذا أردنا أن نقارن بينهما من حيث نسبة الوضوح تبين لنا ما يلي :

ـ أن كثيراً من ألفاظ ابن النحوي ألفاظ معجمية يتضح معناها بالرجوع للمعجم ، والإبهام لا يرجع للحاجة في الرجوع للمعجم وإنما يرجع إلى ربط المدلولات اللغوية الخاصة بالألفاظ بمعان خاصة أرادها الشاعر ،ثم توظيفها في رسم صور مخصوصة ، لا تفهم من الألفاظ دون عمل الشاعر فيها ، ويمكن أن نوضح ذلك من خلال قول الشاعر :

وَإِذَا كُنْـــتَ المِقْـــدَامُ فَـــلا تَجْـزَعْ فـي الحَـرْبِ مِـنَ الـرَّهَجِ

....

وَعِيَـــابُ الأَسْـــرَارِ اجْتَمَعَـــتْ بأَمانَتِهـــا تَحْـــتَ الشَّـــرَجِ

المقدام هو: كثير الإقدام على العدو ، الرهج : الغبار ، لا تجزع : لا تضطرب

والآن كيف وظف ابن النحوي هذه الألفاظ وما الصورة المرادة منها ؟

يحث الشاعر على الجد والمثابرة في طلب العلم فيقول:كن في جدك ونشاطك قوي القلب بالله نافذ العزم فيما تطلب كالمقدام الذي لا يرده عن مقصده راد ،وإذا كنت كذلك فلا تجزع في مجاهدتك الشيطان والنفس ، فإذا جاهدتهما وكنت المقدام في الحرب والطعان فتدرع بالصبر والثبات ولا تجزع بما ينفثانه من الوساوس ليصداك عما أنت بسبيله من الجد في العلم النافع والمثابرة على العمل الصالح(١)

قد استعار الشاعر " الحرب" لمجاهدة النفس والشيطان ؛ لما فيها من مكابدة ومشقة ، و" الرهج" الناتج عنها مستعار للخواطر والأفكار الواردة على القلب من وسوستهما ، بجامع الحقارة فيهما ، والاستعارة الثانية مرشحة للأولى ؛لأنها من لوازم القتال.

---

(١) ينظر :المنفرجتان / صـ١٠٧ ، وينظر: شفاء الصدور الحرجة بشرح قصيدة المنفرجة / للشيخ حسين محمد مخلوف / تعليق / د. مدحت يوسف السبع / دار الفضيلة ٢٠٠٥/ صـ٤٧. بتصرف.

وفي البيت الثاني :

العياب : حقائب وهي أوعية من الجلد تصان فيها الأمتعة كالثياب ، وتطلق على من هو محل سرك من رجل أو امرأة.

الشَّرَج : عُرَى العياب

وبعد : ما علاقة دلالة هذه الألفاظ بالصورة المقصودة عند الشاعر ؟

شبه الشاعر حجب الأسرار الغيبية في منعة الخلق عنها إلا ما يسَّر له بعيبة مملوءة شُدت بعراها شداً وثيقاً حتى لا يخرج منها شيء ولا يطلع على ما فيها إلا من أذن له في حل عراها فيصل إلى ما فيها من الأمانات والأسرار ، فالمغيبات في حجبها عن الخلق . إلا من شاء الله . جعلت كنفائس الأمانات توضع في أوعية محكمة مشدودة العرى لا يخرج منها شيء(١)

وعلى هذا النمط جاء العديد من أبيات القصيدة والتي يبدع الشاعر في اختيار اللفظة المناسبة للاستفادة من المدلول اللغوي الذي وُضعت له ثم توظيفها توظيفاً مناسباً بما يخدم المعنى والصورة.

الألفاظ عند الغزالي :

على الرغم من فخامة الألفاظ والدقة في اختيارها إلا أنها أوضح في جملتها من نص ابن النحوي ، وذلك إذا استثنينا التداخل الواضح في ألفاظ القافية.

ولعل تركيز الغزالي على وصف المحنة مرة تلو الأخرى حتى نهاية القصيدة، جعلته أكثر تركيزا في اختيار الألفاظ بحيث تؤدي كل لفظة معنى لا يقوم به غيرها ، ولا ترهق الذهن في الوصول للمعنى أو الصورة على الرغم من قوة اللفظة وفصاحتها، ولا نكاد نلمس غموض إلا في بيت أو اثنين على طول القصيدة ، حيث أورد الغزالي ألفاظا مبهمة في معناها فاختلف المفسرون لها ،ومنه قول الشاعر وهو يتوسل إلى ربه قائلا:

وَبِسِـــرٍّ أُودِعَ فِـــي بَطـــدِ وَبِمَـــا فـــي وَاحِ مـــع زَهَـــجِ

(١) ينظر: المنفرجتان / صـ ١١٦، وينظر: شفاء الصدور الحرجة / صـ١٤٩.

ذكر صاحب البدر المتلالي أن هذه الكلمات الثلاث ،ثلاثة أسماء من أسماء الله تعالى،وقيل أسماء لبعض الملائكة الكرام...ثم قال واعلم أن الناظم رحمه الله جعل ذلك وفقا مستوي الأضلاع كغيره من الأوفاق.... وقد شاع بين الناس تسمية هذا الخاتم بوفق بطد زهج واح "(١)

وقريبا من هذا ما ذكره الشيخ / زكريا الأنصاري فقال" بطد، واح ، زهج" كلمات تشغل خانات الوقف المثلث "(٢)

وباستثناء هذه الكلمات يمكن القول بأن صياغة الشاعرين صياغة محكمة ،متينة النسج، متخيرة اللفظ.

**وتمتاز القصيدتان بالوحدة الموضوعية ؛ إذ تدور الأبيات في مجملها لتنطق بشدة الأيام، ووقع الأزمات التي تعرض لها الشاعران، مع شكوى صادقة إلى من يملك رفع الضر عنهما، ثم التوسل إليه سبحانه وتعالى بنبيه الكريم، وقد جاءت هذه الوحدة الموضوعية من الوحدة الشعورية في النصين والتي هي بمثابة الخيط الشعوري الذي ربط بين الأبيات.

وأخيراً فإن النصين قد التزما الشكل التقليدي " الوزن الواحد والقافية الواحدة " وقد أبدع الشاعران من خلالهما تشكيلاً فنياً لمعاناة حقيقية وآلام نفسية عن طريق الأداة الأساسية وهي اللغة ومن الواضح أنها ليست لغة إشارية مباشرة، بل هي لغة تجسيدية، ومن ثم فهي لا تتبع النسق العادي في التعبير بل تتنوع الأساليب لغاية فمجئ الطلب والنداء والأمر والرجاء عنواناً على الألم وأملا في الفرج، وتتجاور هذه الأساليب مع المجاز بأنواعه المختلفة، بحيث تتواصل الصور في انسجام يحقق للقصيدة تماسكاً في المبنى وفي المعنى معاً.

(١) البدر المتلالي بشرح منفرجة الغزالي / للشيخ أحمد بن ياسين / ص٥٩،
(٢) المنفرجتان / هامش ١٢٥.

المبحث الثالث

المنفرجتان والملامح الفارقة بين النصين

ذكر صاحب الأغاني أن المعارضات بمثابة الحلقة الفنية التي تربط القديم بالجديد، بل ربما زادت من روابط الشعراء في العصر الواحد إذا تعاصر المتعارضان على نحو ما نراه من معارضة الغزالي لابن النحوي، وكأن التوحد الثقافي والفكري قد دفع إلى التوحد الشعوري فالتقى الشاعران على الرغم من تباعد الأقطار ؛ ولذا فحضور النص النموذج يظهر بصورة قوية تتعدى حدود القوافي والصياغة الفنية ليشمل كذلك المعجم اللغوي، ومضمون النص والغاية منه.

ومع التسليم بما سبق إلا أني ألاحظ أن قوة التجربة الفردية ظلت دافعاً للشاعر المعارِض لأن يعبر عنها فظهرت ملامح الأنا وخصوصية التجربة لاسيما في الجانب النفسي المتعلق بموقف الشاعرين من المحن النازلة و ودرجة الصبر عليها.

بداية قد اتفقنا على وجود نوازل وكروب أصابت الشاعرين ؛ فتعلقا بالله أملاً في حصول الفرج، وقد ظل الغزالي دائراً في إطار المحنة متخذاً من لفظتي " الشدة، والفرج" دليلاً على تشابه الدافع وتوحد الغاية، ولكنه حمَّل اللفظين شعوراً مغايراً لما تؤدياه في النص النموذج، إذ تدلان عند ابن النحوي على أن الشدة لم تصل للذروة التي تستجلب الفرج ؛ لذا فالشاعر يعطيها مساحة ومتسعاً زمنياً يحصل فيه هذا التزايد الذي أهب الشاعر نفسه لاستيعابه، فخاطبها خطاب ما يعقل قائلاً :

اشْتَدِّي أزْمَةَ تَنْفَرِجِي قَدْ آذَنَ لَيْلُكِ بِالْبَلَجِ

فهذان الفعلان " اشتدي، تنفرجي " تستدعيان حصول معناهما مستقبلاً، بينما آثر الغزالي الإتيان بهذين اللفظين في صورة المصدر ؛ ليوحي بحصول معنى الأول والترقب لحصول الثاني، فقال :

الشِّدَّةُ أوْدَتْ بِالمُهَجِ يا رَبِّ فَعَجِّلْ بِالفَرَجِ

فالشدة زادت وتفاقمت ولم يبق أمامها إلا أن تزول، فتعجل الشاعر في الشطر الثاني حصول الفرج صراحة بعد أن أشار إليه ضمناً في الشطر الأول.

وتجدر الإشارة إلى أن الغزالي لم يكتف بالتلميح إلى زيادة الشدة حين قتلت القلوب وأهلكتها، بل نراه يصرح بهذه الزيادة بما لا يدع مجالاً للنفس في تحمل المزيد بعد ذلك بل عليها أن تتضرع لكشف الضر، يقول الشاعر :

والأزمـــــــةُ زَادَت شِـــــدَّتُها يَـــا أزْمـــةٌ علَّـــك تَنْفَرِجِـــي

وبإنعام النظر في النصين يمكن رصد بعض المفارقات النفسية بينهما:

ـ لم يطل ابن النحوي في وصف الشدة حتى أعقبها بحسن الظن في تحصيل الفرج المتيقن وقوعه،فهو كالنهار الدافع لظلام الليل، وكالشمس التي يخفي نورُها ضوء الكواكب الأخرى، وكسحاب الخير التي تأتي ؛لتحي موات النفوس، ومن ثم يمكن القول بأن الجو النفسي الذي تنبض به أبيات القصيدة هو : الحزن العميق المغلف بحسن الظن بالله، وعمق الإحساس بمرارة المحن المتنفس بصدق اللجوء إلى كاشف النقم.

ويختلف الغزالي عن ابن النحوي في هذا الجانب حين نراه يسهب في وصف المحن وفعلها في النفوس، وكيف أنها تحترق اشتعالاً، حتى إن الجوارح والألسنة قد اضطربت وتخبطت فسارت على غير هدى.

ـ تشعرنا أبيات ابن النحوي بأنه أكثر صلابة وجلداً حين خاطب نفسه خطاب القوي المتعالي على المحن، فهو لا يمنيها بالفرج بل يأمرها بالصبر حتى يكشف الله عنه الضر إيماناً منه بقوله تعالى :**[إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا]** {الشرح:٦}

يقول الشاعر:

وَسَـــحَابُ الخَيْـــرِ لَهَـــا مَطَـــرٌ فَـــإِذَا جَـــاءَ الإِبّـــانُ تَجِـــي
وَفَوَائِـــــدُ مَوْلاَنَـــــا جُمَـــــلٌ لِسُـــرُوحِ الأَنْفُـــسِ وَالمُهَـــجِ

وَلَهـــا أَرَجٌ مُحْـــيٍ أَبـــداً فَاقْصُـــدْ مَحْيَـــا ذَاكَ الأَرَجِ
فَلَرُبَّتَمَـــا فَـــاضَ المحْيَـــا بِبِحُـــورِ المَـــوْجِ مِـــنَ اللُّجَـــجِ

وفي هذا الجو نتذكر قول الشافعي[1]

ولرب نازلة يضيق بها الفتى... ذرعا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها... فرجت وكنت أظنها لا تفرج

لكن الغزالي صرح في غير موضع من القصيدة بنفاذ صبره بعد أن بلغت به الأحداث ما بلغت وفعلت فيه ما فعلت حتى أصبح لا طاقة له ولا جلد في تحمل المزيد ولعل هذا الشعور هو ما يفسر لنا تكرار التضرع الذي تضمنته عبارة " يا رب " التي توحي بالإلحاح لتعجيل الفرج و قد اتخذ الشاعر منها متنفساً لهمه يخرج في كل مرة منها جانباً من مرارة نفسه، ويذرف مع كل واحدة ألما عانى منه قلبه وبذلك يكون تكرار هذه العبارة له أهدافٌ شعورية ومعنوية بالإضافة لدوره الموسيقي، يقول الغزالي:

يَـــا ربّ ظَلَمْنَـــا أَنْفُسَنَـــا وَمُصِـــيبَتُنَا مِـــنْ حَيْـــثُ نَـــجِ
يَـــا ربّ خُلِقْنَـــا مِـــنْ عَجِـــلٍ فَلِهَـــذَا نَـــدْعُو باللُّجَـــجِ
يَـــا ربّ وَلَـــيْسَ لَنَـــا جَلَـــدٌ أَنَّـــى والقَلْـــبُ عَلَـــى وَهَـــجِ
يَـــا رَبّ عَبِيـــدُكَ قَـــدْ وَفَـــدُوا و دَعُـــوك بِقَلْـــبٍ مُنْزَعِـــجِ
يَـــا ربِّ ضِـــعَافٌ لَـــيْسَ لَهُـــمْ أَحَـــد يَرْجُـــونَ لِـــذِي الهَـــرْجِ
يَـــا ربّ فُصَّـــاحُ الأَلْسُـــن قَـــد أَضْـــحُوا فِـــي الشِـــدَّة كَـــالهَمَجِ

. يبدو لي أن روح الأمل والرضا قد امتزجا بعاطفة ابن النحوي الحزينة ؛ ليخففا عنه فعل الأيام ووطأة الزمن،وبهذا قد أحدث في الأبيات توازناً نفسياً ومعادلاً وجدانياً حتى ترقى القلوب لتحمل الكروب فقال:

وَرِضـــاً بِقَضـــاءِ اللَّـــه حَجَّـــا فَعَلَـــى مَرْكُوزَتِـــهِ فَعُـــجِ

(١) ديوان الإمام الشافعي / ط. دار ابن سينا / صـ ٤٠.

وَإِذَا انْفَتَحَتْ أَبْوَابُ هُدًى فاعْجِلْ لِخَزَائِنِهَا وَلِجِ

على حين أصبح الشعور المعبر عن ألم النفس وحزنها هو المسيطر على أبيات الغزالي، وهو حزن لا يتصادم مع القدر بل يدفع المؤمن لأن يلوذ بربه ليلطف به فيما جرى به القدر يقول الشاعر:

وَالِي أَفْضَالَكَ يَا أَمَلِي يَا ضَيْعَتَنَا إن لَمْ نَعِجِ
مَنْ لِلْمَلْهُوفِ سِوَاكَ يَغِثْ أَوْ لِلْمُضْطَرِ سِوَاكَ نَجِي
وإِسَاءَتُنا لَنْ تَقْطَعَنَا عَنْ بَابِكَ حتَّى نَلِجِ

ولعل هذا التفاوت في درجة العاطفة عند الشاعرين مرجعه إلى تباين المواقف واختلاف الشدائد التي حلت بكل واحد منهما،فارتفاع نبرة الشكوى وعلو صوت الأسى له ما يبرره في حياة الغزالي فلا يخفى علينا كمّ العداوات والأحقاد التي تعرض لها، حتى تشبعت نفسه ألوان الأذى البشري فتوسل إلى ربه ؛ ليفيض عليه نسمات من النصر الرباني(١)

(١) يقال : لم يقع في دولة المرابطين أشنع من نازلة إحراق كتاب الإحياء،فإنه لما وصلت منه نسخة إلى بلاد المغرب تصفحها جماعة من الفقهاء منهم القاضي أبو القاسم ابن حمدين فانتقدوا فيه أشياء على الشيخ الغزالي، وأعلموا السلطان بأمرها وأفتوه بأنه يجب إحراقها ولا تجوز قراءتها بحال، وكان أمير المرابطين علي بن يوسف واقفاً كأبيه عند إشارة الفقهاء فلما أفتوه بإحراق الإحياء كتب إلى أهل مملكته في سائر الأمصار والأقطار بأن يبحث عن نسخ الإحياء بحثاً أكيدا ويحرق ما عثر عليه منها فجمع من نسخها عدد كبير من بلاد الأندلس ووضعت بصحن جامع قرطبة وصب عليها الزيت ثم أوقد عليها النار، وكذلك فعل بما وجد من نسخها بمراكش وتوالى الإحراق عليها في سائر بلاد المغرب، ويقال إن ذلك كان في حياة الشيخ فدعا على المرابطين بسبب ذلك أن يمزق ملكهم فاستجيب له فيهم (ينظر: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى / ج٢ / صـ٧٥)

والتجربتان تقربان النصين من الإطار العام للأدب الصوفي من أنه أدب إنساني يعبر عن مشاعر وأحاسيس إنسانية تسيطر على أصحابها ولا يستطيعون لها دفعاً دون أن يعبروا عما يحسون.

فكل من النصين قد رق في أسلوبه وروعة معناه، إلا أن شيئاً من الصعوبة قد يحول بين القارئ العادي والوصول لحقيقة المعنى المراد في نفس الشاعر، ومرد هذا الأمر إلى استخدام الشاعرين ألفاظاً لغوية بقصد ومضمون غير ما تعود الأدباء استخدامها فيه من مجازات وتشبيهات بل وحقائق عن طريق استخدام مصطلحات صوفية وضعت عندهم لأحوال ومقامات لا يصل لمغزاها إلا من كان على دراية بها، وفي الوقت ذاته يبتعد النصان عما يؤثره الصوفيون في تعبيرهم " بالإيماءة والإشارة على صريح العبارة، ويلوحون بالمعنى ولا يصرحون مما يظهر شعرهم في صورة ضبابية تدخل الفكر في تيه لإدراك مراميه "[1]

و الآن نتوقف عند نموذجين من شعر ابن النحوي . على سبيل المثال . يوضحان مثول هذه الظاهرة في شعره مما جعله أدخل في إطار الشعر الصوفي من نص الغزالي يقول ابن النحوي :

وَرِضــاً بِقَضــاءِ اللَّــه حَجَّــا فَعَلَــى مَرْكُوزَتِــهِ فَعُــجِ
وَإِذَا انْفَتَحَــتْ أَبْــوَابُ هُــدًى فاعْجِــلْ لِخَزَائِنِهَــا وَلِــجِ
وَإِذَا حَاوَلْــتَ نِهَايَتَــهَ فاحْــذَرْ إِذْ ذَاكَ مِــنَ العَــرَجِ
لِتَكُــونَ مِــنَ السُّــبَّاقِ إِذَا مــا جِئْــتَ إِلَــى تِلْــكَ الفُــرَجِ

أشار الشاعر إلى مقام الرضا وحقيقته ألا يعترض المسلم على حكم الله وتقديره، فأي طريق سلك ابن النحوي للتعبير عن هذا المعنى ؟

آثر ابن النحوي التصوير وهو أقوى وسائل التعبير ؛ ليجسد به هذا المعنى فيمكن الحواس من التعامل معها، فلكون الرضا حقيقياً على كل

(١) في الأدب الصوفي / د. نظمي عبد البديع محمد / صـ ٥٧.

مؤمن، أو لكونه أجل مطالبه فاعطف على أعلاه وأشرفه الذي هو في شرفه، ومدار صحة الأعمال عليه والتوصل إليه من جميع جهاته وأسبابه كمركز الدائرة....فشبه الرضا بالدائرة،وأعلاه وأشرفه بمركزها ورشح الاستعارة بذكر العوج ثم نراه يستعير في البيت الثاني الانفتاح لارتفاع الموانع الحسية وانكشاف الحجب النفسية وزوال العوائق التي تمنع من نيل المقامات والمعارف، واستعار الأبواب لتلك الموانع والحجب ؛ لأنها تمنع من الوصول للمطلوب كما أن الأبواب لا يتوصل إلى ما وراءها إلا بفتحها، فالعجلة كناية عن الجد، والولوج كناية عن الثبوت في تلك المقامات، ثم أشار إلى أهل الوصول الذين حثهم على دوام الأعمال ثم أتبعه بذكر أحوال أهل البدايات وخاطبهم بابتداء الأعمال فأشار إلى مقام التوبة بتقبيح المعصية. (١)

وبناء على ما سبق نرى الشاعر قد اختار صيغا مخصوصة وحملها معاني مخصوصة مما يدل على مقدرة الشاعر اللغوية، وتمكنه من توظيف مفرداته بما يتوافق مع معانيه وأفكاره، ويزداد الأمر وضوحاً بالنظر في النموذج الثاني وهو قول الشاعر:

وَكِتَـــــابُ اللهِ رِيَاضَـــــتُهُ لِعِقُـــول الْخَلْـــقِ بِمُنْـــدَرِجِ

الرياضة : من رضت الدابة : أي علمتها السير وإضافتها إلى ضمير الكتاب في قوله " رياضته " على سبيل المجاز ؛ لأن المعلم والمؤدب في الحقيقة هو الله، والمقصود تعليم القرآن وتأديبه لعقول الناس بأمره ونهيه " بمندرج " أي بطريق واضحة يندرج الناس فيها لصحتها ووضوحها وفي ذلك تشبيه العقول بالدابة في حاجة التعليم عن طريق الاستعارة بالكناية وطوى ذكر المشبه واكتفى بلازمه(٢).

(١) شرح المنفرجة/ لابن الأنصاري / ٤٣.
(٢) السابق .

وبهذا يكون التصوير قد أدى دوره في تجسيد المعنى بعد أن كان مجرد فكر يطوف بالذهن، قد يتعذر إدراكه أولا يقوى على التأثير إذا وقف المعنى في التعبير الأدبي عند حد المعنى العادي(١).

النصان يكشفان عن ثراء الألفاظ مع جودة اختيارها متناسقة مع معانيها، وقد أشرنا إلى أي مدى كان حضور النص النموذج في النص المعارِض ،ومع ذلك فلكل واحد منهما وسائله الخاصة في اهتمامه بالألفاظ،فعلى سبيل المثال نلحظ معانقة بين الفعل ومشتقاته عند ابن النحوي وبراعة ذلك تتمثل في دلالة كل من الفعل ومشتقاته على معان مراده، وليس القصد منها التلاعب بالألفاظ والخلو من المعاني فيقف عند حد التجميل اللفظي المصطنع ولعلنا قد توقفنا عند إرادة الشاعر لمعنى كل لفظ " نسجت،انتسجت، المنتسج " في قوله :

حِكَمٌ نُسِجَتْ بِيَدٍ حكَمَتْ ثُمَّ انْتَسَجَتْ بِالْمُنْتَسَجِ
فَإِذَا اقْتَصَدتْ ثُم انْعَرَجتْ فَبِمُقْتَصِدٍ وَبِمُنْعَرِجِ

فأمور الخلق قضيت بيد الله ثم التحمت بالعبد المقضي عليه بها،فإذا اقتصدت هذه الأمور أي توسطت واعتدلت في نظر العقل أو مالت فإن اقتصادها وانعراجها كائنان بالعبد حتى يصبح هو بها مقتصداً أو منعرجاً في علاقته بربه تعالى، ولكون التفضل والرحمة هي الأغلب والأشمل في معاملة المولى لخلقه قدمه الشاعر ثم عطف عليه بـ " ثم " الدالة على التراخي وقلة ميل القدر فتقل النقم إذا قورنت بكثرة النعم(٢) ولم لا وقد قال الحق تعالى : "عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء"

ولا شك في أن هذه المعانقة تدعو إلى " اليقظة الذهنية لمحاولة الإدراك والتتبع للمعاني المرادة "(٣)

---

(١) في الأدب الصوفي / صـ ١٤٥.
(٢) شرح المنفرجة /لابن الأنصاري بتصرف.
(٣) في الأدب الصوفي / صـ ٢٤٥

وقد خلا نص الغزالي من الجمع بين المشتقات تقريباً إلا أنه آثر اللهج بصيغ معينة اتخذ من وزنها قالباً أدار فيه معناه ومنه قوله :

يَـا نَفْـسُ وَمَـا لَـكِ مِـنْ فَـرَجٍ إلا مَـــــوْلَاكِ لَـــــهُ فعَـــــجِ
وَبِـــهِ فَلُـــذِي وَبِـــه فـــُوزي وَلُبـــابِ مَكَارِمِـــه فَلَجِـــي
كَـــيْ تَنْصَـلِحِي كَـــيْ تَنْشَـرِحِي كَـــيْ تَنْبَسِـــطِي كَـــيْ تَبْـــتَهِجِ

فالشاعر قد جرد من نفسه نفساً مستقلة يوجه لها خلاصة الحكمة والنصح إذ لا منفي لكربها ولا مزيل لعسرها إلا مولاها، فأفاد الاستثناء في "إلا "الحصر لمعنى اللواذ واللجوء على مالك الملك فلا ينبغي الانصراف إلى غيره وقد أكد الشاعر هذا المعنى في البيت الثاني بطريق الحصر كذلك ولكن بدون أداة بل اختار صيغ الأمر الثلاثة " لذي، فوزي، فلجي "وقدم عليها الضمير ؛ ليحصر معاني الأفعال على الحق تعالى.

ثم يستعين الشاعر في نصحه في البيت الثالث بمؤثرات أسلوبية معينة تتراوح بين الصيغة الموحدة المنغومة بما تحلت به من سجع، وبالتركيب الاشتقاقي للأسلوب، وبالجمل الأربع الموصولة معنى والمصدرة بلفظ واحد " كي ".

فالصيغة التي أورد الشاعر عليها الأفعال وهي " تنفعلي " مقصودة بما فيها من زيادة في حصول معناها.

ونحن بصدد الإشارة إلى بعض مظاهر التفاوت بين النصين أريد أن أنوه على ظاهرة أسلوبية برزت في نص الغزالي ألا وهي التكرار[1] وسبق أن أشرنا إلى دوره في أداء المعنى في نموذج سابق وها هو نموذجٍ آخر يؤكد

(١) التكرار هو: دلالة اللفظ على المعنى مردداً غرضاً من أغراض الكلام أو المبالغة فيه. ينظر: البلاغة الفنية / علي الجندي / ط.مكتبة الأنجلو المصرية / ط.٢/ ١٩٦٦ / صـ ٢٠١

أن التكرار قد أدى دوراً تعبيرياً واضحاً فهو يعني إلحاح المعنى على فكر الشاعر فهو لا يفتأ ينبثق في أفق رؤياه من حينٍ لآخر، ومنه قول الشاعر:

فَبِكُلِّ نَبِيٍّ نَسْأَلُ يَا رَبَّ الأَرْبَابِ وكُلِّ نجي
وَبِفَضْلِ الذِّكْرِ وَحِكْمَتِهِ وَبِمَا قَدْ أَوْضَحَ مِنْ نَهَجِ
وَبِسِرِّ الأَحْرُفِ إِذْ وَرَدَتْ بَضِيَاءِ النُّورِ المنْبَلَجِ
وَبِسِرِّ أُودِعَ فِي بَطَدِ وَبِمَا فِي وَاحِ مع زَهَجِ
وَبِسِرِّ البَاءِ وَنُقْطَتِهَا مِنْ بِسْمِ اللهِ لِذِي النَّهَجِ
وَبِقَافِ القَهْرِ وَقُوَّتِهَا وَبِقَهْرِ القَاهِرِ للمُهَجِ
وَبِبَرْدِ المَا وإِسَاغَتِهِ وَعُمُومِ النَّفْعِ مَعَ الثَّلَجِ
وَبِحَرِّ النَّارِ وَحِدَّتِهَا وَبِسِرِّ الحُرْقَةِ والنُّضْجِ
وَبِمَا طَعِمْتَ مِنَ التَّطْعِيم وما ضَرَحَتْ مِنَ الضَّرَجِ
يَاقَاهِرَ يا ذي الشَّدَّة يَا ذا البَطْش أغِثْ يا ذَا الحُجَجِ

فالأبيات تكشف عن توسل الشاعر إلى ربه بكل ما أوتي من طاقة، فاختار حرف " الباء" المتضمن معنى التوسل الذي لهج به لسان الشاعر مترجماً عن نبض قلبه، وقد كررها ؛ ليفرع عليها ألواناً من وسائل طلب الشفاعة، فالاستقصاء واضح في العطف الذي أورده من التوسل بالأنبياء، وبفضل الذكر، وبإعجاز أحرف القرآن الكريم، وبالسر المودع في بسم الله، وبالقوة القاهرة في قاف الإرادة الربانية، وبعذب الماء السائغ، وبحر النار الحارق، وبكل صالح نافع....، ولا أبالغ إذا قلت : إن التكرار هنا له دلالة نفسية قيمة ؛ إذ سلط الضوء على أعماق الشاعر فأضاءها وأطلعنا عليها لأنه قد وصل لمنتهى الكرب المستقصي لأغلب وسائل الطلب.

ويلاحظ أن التكرار كان لحرف الباء منفرداً تارة، ومقروناً بلفظ "سر" تارة أخرى.

والفارق في ختام النصين يتمثل في طول النص المعارِض عن ختام النص النموذج و يتضح ذلك من عرض المحاور التي ختمت بها القصيدتان :

فابن النحوي ختم قصيدته بالصلاة على النبي الهادي إلى طريق الحق، وعلى صحابته المقربين أمثال الصديق والفاروق وعثمان وعلي،كذلك الحسن والحسين وأمهما ، ثم على جميع آل بيته الشريف وصحابتهم وقرابتهم ومن اقتفى أثرهم،فقال:

صَـــلَوَاتُ اللهِ علَـــى المَهْـــديِّ الهَـادِي النَّـاسِ إلـى الـنَّهَجِ
وأَبـــي بكْـــرٍ فـــي سِيرَتِـــهِ وَلِسَـــانِ مَقَالَتِـــهِ اللَّهَـــجِ
وَأَبـــي حَفْـــصٍ وَكَرَامَتِـــهِ فِـــي قِصـــةِ سَـــارِيَةَ الخُلُـــجِ
وَأَبـــى عَمْـــروَذِي النُّـــورَيْنِ المُسْـــتَحْيَا الْـــبَهِجِ
وَأَبـــي حَسَـــنٍ فـــي العِلْـــمِ إِذَا وَافَـــى بِسَـــحَائِبِهِ الخُلُـــجِ
وصـــــحابته وقرابتـــــه وقفـــاة الأثـــر علـــى نهـــج

ثم أتبع ابن النحوي ذكر هؤلاء الصفوة بالتوسل بهم ؛ ليتحقق له الفرج، راجياً من الله الرحمة وحسن الخاتمة يقول:

يـــا رب بهـــم وبآلهـــم عجـــل بالنصـــر وبـــالفرج
وارحـــم يـــا أكـــرم مـــن رحمـــا عبـــداً عـــن بابـــك لـــم يعـــج
واخـــتم عملـــي بخواتمهـــا لأكـــون غـــداً فـــي الحشـــر نجـــي

ويلاحظ أن الغزالي لم يذكر الصلاة على النبي ﷺ ابتداء كما فعل ابن النحوي وإنما جاء به بعد وصف هؤلاء النفر الذين بذلوا أرواحهم، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، وهم مَن تأمل النفس أن ترقى لمنزلتهم، وتحظى بقربهم ؛

فتتحقق لها السعادة في الآخرة حيث النعيم في دار التكريم، يقول الغزالي واصفاً هؤلاء الصفوة :

يَـا نَفْـسُ وَمَـا لَـكِ مِـنْ فَـرَجٍ إلا مَـــوْلَاكِ لَـــهُ فعَـــجِ
وَبِـــهِ فَلُـــذِي وَبِـــه فُـــوزِي وَلُبـــابِ مَكَارِمِـــه فَلَجِـــي
كَـــيْ تَنْصَـلِحِي كَـــيْ تَنْشَـرِحِي كَـــيْ تَنْبَسِـــطِي كَـــيْ تَبْـــتَهِجِ
وَيَطِيـــبُ مُقَامُـــكِ مَـــعْ نَفَـــرٍ أضْـحَوا فـي الحِنْـدِس كالشَّـرجِ
وفُّـــوا للهِ بِمَـــا عَهَـــدُوا فِـــي بَيْـــعِ الأنْفُـــس والمُهَـــجِ

ويأتي التفصيل بعد الإجمال والتوضيح بعد الإبهام لهذه العصبة الطاهرة وهم مَن سكنوا الصحراء، واستوطنوا تلك البقاع فأجلوا ظلام الكون ومحوا ضلال الشرك فازدادت بهم الأرض شرفاً، يقول الشاعر :

وَهُـــمُ الهَـــادِي وَصَـــحَابَتِه ذُو الرّتْبَـــةِ وَالعِطْـــرِ الأرجِ
وَعَلَـــى الصـــدِّيقِ خَلِيفَتِـــهِ وكَـــذَا الفَـــاروقِ وكُـــلِّ نـــجِ
وَعَلـــى عُثْمَـــانَ شَـــهِيد الـــدّار أبِـــي العِرْفَـــانِ علَـــى الـــدّرج
وَأَبِـــي الحَسَـــنَيْنِ مَـــعَ الأوْلَادِ كـــذا الأزْوَاجِ وكُـــلِّ شـــجِ
قَـــومٌ ســـكنوا الجَرْعَـــاء وَهُـــم شَـــرَفُوا الجَرْعَـــاء وَمُنْعَـــرجِ
جَـــاءوا للكَـــوْنِ وَظُلْمَتُـــهُ عَمَّـــت وَظَـــلاَمُ الشِّـــرْكِ دَجِـــى
مَـــا زَالَ النَّصْـــرُ يَحفُّهُـــم والظُّلْمَـــةُ تُمْحَـــي بـــالبَلَجِ
حَتَّـــى نَصَـــرُوا الإسْـــلاَمَ وَعَـــادَ الـــدِّينُ عَزِيـــزاً فـــي بَهَـــجِ
مَـــا مَـــالَ المَـــالُ وَحَـــالَ الحَـــالُ وسَـــارَ السّـــارِي فـــي الـــدَّلَجِ

وتملي الرغبة في المعارضة على الغزالي أن يختم قصيدته مضمناً إياها أبياتاً كاملة من منفرجة ابن النحوي مؤكداً عنصر المحاكاة ، وموضحاً روح التقليد فيتفق الختام في النصين كماً وكيفاً يقول الغزالي :

يَـــا رَبّ بِهِـــمْ وَبِآلِهِـــم عَجِّـــلْ بالنَّصْـــرِ وبالفَـــرَجِ

واجْعــل ذِكْــرِ الإخْــلاَصِ لَنَــا مُحْــيٍ قَلْبــاً يَــا ذَا الفَــرَجِ
واخْــتِمْ عَمَلِــي بِخَوَاتِمِــهَا لأكُــونَ غَـداً فــي الحَشْـرِ نَــجِ

من الواضح أن المنفرجتيْن يكمن وراءهما باعثٌ نفسيٌ ، فسارتا في فلك الإفصاح عن تجربة شعورية ، وحالة وجدانية لشاعرين اشتدت عليهما الأيام ، وضاقت أمامهما السبل إلا سبيل الحق تبارك وتعالى ، فسلكاه وهما على يقين أنه لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه.

وعندما اختار الغزالي منفرجة ابن النحوي لم يقصد المحاكاة لمجرد المحاكاة فحسب ، بل جاءت معارضته ترجمة لواقع معاش ، ومعاناة حقيقية كانت بمثابة المبرر الأقوى لمعارضته.

ـ وقد أشرت من خلال البحث إلى أوجه الشبه أو قل المواطن التي اقتدى فيها الشاعر المعارِض بالنص المعارَض بما يحقق لوناًُ من التجانس بين النصين ، وقمة هذا الاتفاق يمثله اختيار وزن الخبب والذي يدل على مسايرة الشاعريْن للحس الموسيقي الجديد من جانب وعلى وعي ابن النحوي لاختياره وزن سريع متلاحق التفعيلات مكنه من إفراغ تلك الشحنة النفسية التي حوته نفسه وقد تبعه الغزالي في ذلك

وقد اتفق النصان كذلك في روي " **الجيم** " وهو من الحروف متوسطة الشيوع في روي الشعر العربي كما ذكر د/ إبراهيم أنيس.

. وقد تشابه النصان في استغلال صاحبيهما لألوان البديع فوجدنا كماًُ هائلاًُ من المحسنات تتجاور مع ألوان التشبيه والاستعارة والتصوير ، ولكني ألمح فارقاًُ في توظيف كل من الشاعرين لهذه الألوان ،فإتيان ابن النحوي لهذه الألوان بصورة مكثفة وحرصه عليها أعلى من الصنعة وقرب النص من نظم العلماء ،في الوقت ذاته يبدو إكثار الغزالي لهذه الألوان مظهراًُ من مظاهر تفوقه ؛ حيث استطاع أن يوظفها محولاًُ إياها إلى عناصر جمالية دخلت ضمن نسيج تشكيله لشعره دون أن يسقط في مهاوي التكلف ، كما أنها لم تأت لمجرد الزينة الشكلية . إلى حد بعيد . أما عن

المعجم اللغوي فمن الواضح أن النصين يمثلان ثراءاً لغوياً في عمومهما ،إلا أن لغة الغزالي أكثر وضوحاً وبياناً من لغة ابن النحوي والتي يشوبها في بعض الأبيات شيء من الغموض أو الإبهام سيما للقارئ العادي ، وقد يرجع ذلك إلى أمور منها :

ـ أن ابن النحوي شاعر لغوي على وعي بتصريف الكلمة فهو يقلب المشتقات ويستخرج منها صيغاً يراها أكثر ملاءمة لمعناه من غيرها و وإن كانت بعيدة عن معجم الشعراء.

ـ ظهور ملمح الصوفية في منفرجة ابن النحوي والذي أدى به إلى استخدام صيغ وضعت لمعان مخصوصة متعارف عليها في حقل الصوفية دون غيرهم.

ـ رغبة ابن النحوي في الإشارة إلى بعض مقامات الصوفية وأحوالهم وهذا لا يتأتى إلا بالتعبير عنها تعبيراً يصعب إدراكه لغير هؤلاء.

أما عن الأفكار والمعاني التي أوردها الشاعران فيمكن المقارنة بينها بعرض موجز لأهم المعاني التي جاءت في النصين .

أولاً : **منفرجة ابن النحوي :**

. استهل الناظم منظومته بمخاطبة الشدائد والمحن التي كثيراً ما يصاب بها العبد في الدنيا فتشق عليه، وتضيق بها نفسه ، ويشتد منها ضجره ، تنزيلاً لها منزلة من هو أهل للخطاب ، وفي هذا براعة استهلال حيث أفصح الشاعر عن غرضه منذ المطلع وبعد عدد قليل من الأبيات تناسى الشاعر المحنة وشدتها وأطال في ذكر معان جزئية ترجع بطريق مباشر أو غير مباشر للغرض الأصلي والذي ذكَّرَنا به ثانيةً في آخر بيت في القصيدة.

ـ ذكر الشاعر ضرورة الرضا بالقضاء والصبر على البلاء ، وحسن الظن بالله.

. نعم الله هبات للساعين إليها.

. اقتران التقدير الإلهي بالحكمة.

. المبادرة إلى أبواب الهدى وخزائن الرحمة.
. ضرورة مجاهدة النفسي والشيطان.
. وجوب رضا العبد بما أقيم فيه.
. بهجة العيش للمبتهجين والمنتهجين.
. وجوب المثابرة على الأعمال الصالحة.
. التوبة من المعاصي والترغيب في الطاعات
. التشويق إلى الطاعات بما في الجنة من الحور العين.
. فضل تلاوة القرآن وقيام الليل.
. مدح العقل وذم الهوى.
. رياضة العقول بالقرآن الكريم.
. فضل العلم والعلماء العاملين.
. الحث على طلب أعلى الدرجات.
. لذة الاشتياق وألمه.
. العلوم الغيبية وإفاضتها على بعض الخواص.
. الرفق ومدحه والخرق وذمه.

ـ الصلاة على النبي وأصحابه الكرام أبي بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

. ثانياً :المعاني التي حوتها **منفرجة الغزالي** :

. أبدع الشاعر حين أفصح منذ المطلع عن مضمون القصيدة فاستهلها بوصف الشدة والكروب و وفعل المحن والخطوب ، ثم أحسن في طلب الفرج ، وقد جاءت هذه المعاني في عشرة أبيات بعد مطلع القصيدة ، ولم ينسَ الشاعر محنته فسرعان ما عادت إلى ذهنه فعاود وصفها وأبدع في رسم صورة ناطقة معبرة عن نهاية ما وصل إليه جراء هذه النكبات التي زيلها بالدعاء لرفع البلاء.

. ينتقل بنا الشاعر نقلات خفية سريعة لا نشعر معها بتناقض ولا نحس معها بفراغ فبينما هو يتضرع إلى الخالق لكشف الضر نراه يلح على الله ويقسم عليه ويتوسل إليه بأنواع القرب.

. يبتهل الشاعر إلى ربه حتى يمن على المصابين والمكروبين ومن نفذ صبرهم وقل جلدهم بكشف ما ألم بهم.

. يوجه الشاعر للنفس حديث لوم وعتاب ناصحاً لها بأن تتمسك بعرى الإيمان بحسن الالتجاء لرب الأكوان.

ـ يأتي ختام القصيدة بدعوته للاقتداء بالنبي الهادي وآله وصحابته الكرام حتى نحظى بالنعيم في دار التكريم.

فهرس المراجع

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى / أبو العباس الناصري /ج٢/ دار الكتاب،الدار البيضاء / ١٤١٨،١٩٩٧ /ت، جعفر الناصري، محمد الناصري
(٢) البدر المتلالي في شرح منفرجة الغزالي / أحمد بن ياسين
(٣) البديع تأصيل وتجديد / منير سلطان /منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨٦
(٤) البلاغة الفنية / علي الجندي / ط.مكتبة الأنجلو المصرية / ط.٢/ ١٩٦٦
(٥) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، د.إحسان عباس
(٦) تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، د. حمدي عبد المنعم
(٧) تاريخ مدينة دمشق / أبي القاسم الشافعي / ج٥٥/ دار الفكر، بيروت ١٩٩٥/ ت،محب الدين أبي سعيد العمري
(٨) التعريفات / علي بن محمد الجرجاني / ت. إبراهيم الابياري دار الكتاب العربي، بيروت ط.١/ ١٤٠٥
(٩) حاشية الدمنهوري / مكتبة الطوبي، مصر ١٣٢٢،١٩٠٤هـ
(١٠) خريدة القصر وجريدة العصر/ أبو الفرج الأصبهاني / ج ١٣، المجمع العلمي العراقي ١٣٥٧،١٩٥٥
(١١) خزانة الأدب /ابن حجة الحموي ط١، المطبعة الخيرية، القاهرة ١٣٠٤
(١٢) دولة المرابطين فى المغرب والأندلس، د. سعدون عباس
(١٣) ديوان الإمام الشافعي / ط. دار ابن سينا
(١٤) شعب الإيمان / للبيهقي/ ج ٦ /دار الكتب العلمية ، بيروت ،ط١، ١٤١٠هـ/ ت.محمد السعيد زغلول
(١٥) شفاء الصدور الحرجة بشرح قصيدة المنفرجة / للشيخ حسين محمد مخلوف / تعليق / د. مدحت يوسف السبع / دار الفضيلة ٢٠٠٥
(١٦) طبقات الشافغية الكبرى /تاج الدين السبكي /ج٨/ هجر للطباعة والنشر١٤١٣هـ /ط٢ / ت.محمود محمد الطناجي، عبد الفتاح الحلو
(١٧) في الأدب الصوفي / د. نظمي عبد البديع محمد

(١٨) القاموس المحيط / للفيروزبادي / ج ١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت
(١٩) قصيدة المديح في الأندلس /أشرف محمود نجا / دار المعرفة الجامعة الإسكندرية / ط،٢،١٩٩٦
(٢٠) القول الشعري. رجاء عيد / منشأة المعارف الإسكندرية، ١٩٩٥
(٢١) كشف الخفاء/ إسماعيل الجراحي /ج١ /مؤسسة الرسالة، بيروت،١٤٠٥، ط،٤، ت. أحمد القلاش
(٢٢) كشف الظنون/مصطفى القسطنطيني الرومي/ج٢/ دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٣/ ١٩٩٢
(٢٣) اللباب في تهذيب الأنساب /أبو الحسن الشيباني ج٢/دار صادر بيروت /١٤١٠، ١٩٨٠
(٢٤) لسان العرب / محمد أبو بكر الرازي/ج٢ ، لبنان ، بيروت ١٩٩٥
(٢٥) مجلة فصول / مجلد ١٤/ العدد الثاني / ١٩٩٥
(٢٦) المعارضات الشعرية دراسة تاريخية نقدية / عبد الرحمن إسماعيل / النادي الأدبي بجدة / ط،١ ،١٩٩٤م،
(٢٧) المعارضات في الشعر الأندلسي القصيدة العباسية نموذجاً د. علي الغريب محمد الشناوي، ط. ٢٠٠٣
(٢٨) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم / عبد الرحمن الجوزي /دار صادر، بيروت ١٣٥٨، ط/١
(٢٩) المنفرجتان شعر ابن النحوي والغزالي / زكريا الأنصاري / دار الفضيلة القاهرة /ت،عبد المجيد دياب
(٣٠) نقد الشعر / قدامة بن جعفر / ت.محمد عبد المنعم خفاجي / دار الكتب العلمية
(٣١) هدية العارفين / إسماعيل باشا البغدادي /ج٥/دار الكتب العلمية بيروت، ١٤١٣ ١٩٩٢

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــــــوع	رقم الصفحة
المقدمة	٣٦٣
المبحث الأول: إطلالة على الشاعرين	٣٦٥
أولا: التعريف بالإمام ابن النحوي	٣٦٦
ثانيا: التعريف بالإمام الغزالي	٣٧٠
المفرجتان	٣٧٣
المبحث الثاني: معارضة الإمام الغزالي للإمام ابن النحوي ورصد مظاهر التشكيل الجمالي المشتركة بينهما.	٣٧٨
موقف الشاعرين من البديع	٣٨٣
القافية	٣٨٩
المعجم اللغوي	٣٩١
المبحث الثالث: المنفرجتان والملامح الفارقة بين النصين	٣٩٦
فهرس المراجع	٤١٢
فهرس الموضوعات	٤١٤